أبرزت الى الوجود أمهات كتب التاريخ الاندلسى فى ما بين سنوات 1883 ـ 1895 ، وكان المشرفان على تحقيقها ونشرها ، المستشرقين الشهيرين كوديرا وريبسيرا ثم واصل المستشرقون الاسبان نشاطهم الذى يرجع عهده الى القرن الخامس عشر الميلادى مع المستشرق والاب ملشور أنطونيا (1889 ـ 1936) Melchor Antunia مدير مكتبة الاسكوريال الذى ألف عدة كتب عن ابن حيان المؤرخ القرطبى ، والمحدث الرحالة ابن رشيد السبتى وابن الخطيب الخ ... ثم الاب آسين بالاثيوس 1944 ـ 1871 Asin Palacios الذى كان عضوا فى عدة مجامع علمية منها المجمع العلمى العربى بدمشق Gonzales Paenaâ (1889 ـ 1949 ـ وايميلو Emilio Garcia Gomez الذى لا زال فى قيد الحياة ، ولو لم تكن من أعماله الهامة الا تحقيق ديوان ابن قزمان الاندلسى الذى طبعه منذ ثلاث سنوات فى ثلاثة أجزاء بعد ، تحقيق ودراسة خصص لها عشرين سنة لكفاه فخرا ، وقد اهتم هؤلاء المستشرقون مع من انضم اليهم مثل Gomez Nogalès فاكتموا بأحياء ذكرى اعلام الاندلس ، أمثال الامامين ابن حزم وابن رشد ، ولا زالت الجهود مبذولة فى هذا الميدان ، وهناك مكتبة الفاتكان التى يرجع عهدها الى القرن الخامس عشر ولها فروع كمكتبة بولونيا ونابولى Palermo والمكتبة الامبروزيانية ، والمكتبة الميديتشيا ، والمكتبة الوطنية لمجمع العلوم فى Torino ولكل منها فهاريس مشهورة عند الباحثين ، فمكتبة الفاتكان اهتم بها كثير من المستشرقين وآخرهم المستشرق دولاقيدا ، الذى تقدم لنا الحديث عنه ، فقد وضع لها فهرسا يشتمل على 388 صفحة مع مقدمة اضافية ، وثبت باسماء المؤلفين ، ومصنفاتهم ، وتضم المكتبة اليوم ، ستين ألف مخطوط ، بين شرقى وغربى ، كما يوجد فهرس لمخطوطات المكتبة المديتشية فى فلورنسا ، قام به اسطقان عواد السمعانى فى 492 هـ ، أما المستشرقون الايطاليون فقد ظهرت منهم نخبة ، منهم ميشال امار Michel Amari (1806 ـ 1887) وفضله على الدراسات الشرقية وهو تخصصه فى دراسة حضارة جزيرة صقلية ، وقد جمع موسوعة لها أهمية ، حيث جمع نصوصها العربية المتعلقة بالجغرافية والتاريخ والتراجم من خمسة وثمانين مصدرا كما اشتهرت فرنسا بمكانتها كمركز للاستشراق ، فكانت أهم خزائنها المكتبة الوطنية بباريس ، التى انشئت سنة 1654 ، وهي تحتوى الآن على ستة ملايين من الكتب ، منها سبعة آلاف مخطوط عربى ، كما يضاف الى هذه المكتبة ، مكتبات جامعة Strasbourg ، ومكتبة الجمعية الاسيوية ، ومكتبة المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية فى باريس ، أما أبرز مستشرقيها فلا يمكن استيفاؤهم للعذر

الذى قدمناه ، وكل ما يمكن هو ذكر أفراد منهم ، لهم شهرة عالمية فى الدراسات الاسلامية ، وبالخصوص التاريخية موضوع دراستنا ، وهؤلاء هم : البارون ، د ، ساسى (1758 ـ 1898) ود ، موتيلانسكى Motylinski (1854 ـ 1907) المتخصصون فى تاريخ بلاد مزاب وائمة المذهب الاباضى ، وليفى بروفنسال (1894 ـ 1956) ، وغيرهم كثيرون ، ولا يمكننا تتبع مراكز الاستشراق فى بقية أنحاء العالم ، وقد ظهر هذا النشاط فى كثير منها كانكلترا وأمريكا وألمانيا وهولاندا والمجر وسويسرا الخ · وقبل أن نختم هذا العرض بمركز الاستشراق فى الاتحاد السوفييتى ، نذكر عينات من المستشرقين الممتازين فى مختلف أصقاع العالم ، وذلك كالمستشرق الهولاندى دوزى (1820 ـ 1893) الذى اشتهر بانه أول فاتح للدراسات الاندلسية ، وتآليفه الاندلسية ، تعد من أهم المراجع للباحثين ، كما ان نشاطه فى الميدان التاريخى شمل تاريخ بلاد المغرب العربى ، وبلاد المشرق ، وعلى ذكر دوزى لا نغفل عن ذكر هولاندا ومكتباتها ، ومطابعها خصوصا مطبعة ليدن ، التى ضربت المثل الاعلى فى اتقان الطبع والنزاهة ، ومن هذه العينات ، بروكلمان الالمانى (1868 ـ 1956) الذى بذل جهودا كللت بالنجاح ، ولو لم تكن من هذه الجهود الا كتاب «تاريخ الآداب العربية» ، الذى طبع سنة 1937 وجمع فيه تراجم العلماء والادباء فى مختلف العصور الاسلامية ، وذيل كل ترجمة بمصادرها ووصف الكتب ، وميزاتها ، وتاريخ طبعها ، وأمكنتها فى الشرق والغرب ، وأخص المخطوطات فى مكتبات أوروبا ، ومع الاسف لم تصدر من ترجمته العربية الا ثلاثة أجزاء ، أما ترجمته باللغة الفرنسية ، فهي على وشك النفاذ ، ان لم تكن نفذت بعد ، وقد جاوز ثمنها الالف دينار منذ سنوات ·

ولنختم دراستنا هذه بالاستشراق فى الاتحاد السوفياتى الذى كانت جامعة لينينغراد من أهم المراكز وقد امتاز قسم مخطوطاتها العربية الذى اقتناه القياصرة بواسطة المستشرق الفرنسى د. ساسى ، وكانت بعض هذه المخطوطات فريدة فى العالم ، كديوان ابن قزمان الاندلسى ، وقد تداول عليها محافظون مشهورون ، الى أن عين المستشرق الشهير كاراتشوفسكى (1883 ـ 1951) وصادفت لينينغراد حصارها الطويل أثناء الحرب العالمية الثانية ، فاهتم كراشكوفسكى بالمكتبة ، وكان ينقلها من مكان الى مكان ، الى أن مر خطر الحصار ، فكان جزاؤه من حكومته أعظم ، نيشان مكافأة له ، وهذا الحديث نوجهه الى كثيرا من أبنائنا واخواننا ، الذين يرون منافاة عصر التقدم العلمانى مع وجود هذا التراث ، وقد نوه وعرف بهذه الذخائر كراتشكوفسكى فى مختلف دراساته

بالمؤتمرات ، وسجل الكثير منها فى تأليفه القيم « مع المخطوطات العربية » الذى أتمه سنة 1943 ، ونقل الى عدة لغات ومن جملة مستشرقى الاتحاد السوفياتى Barthold (1869 ـ 1930) الذى خلف ما يربو على 400 دراسة وتآليف أمثال تاريخ الاستشراق فى أوروبا وروسيا ، وكتاب الاسلام ، الذى يرى فيه ، أن القرآن لا ينافى التقدم وتاريخ بعض الدول الاسيوية ، ولا زال عمل الاستشراق متواصلا فى الاتحاد السوفياتى ، وفى السنة الماضية نشرت مجلة علمية (المدار عدد 1 يناير 1974) ان هيئة من العلماء كلفت منذ سنوات بتحضير فهرس لمخطوطات مكتبة لينينغراد البالغ عددها عشرة آلاف كتابا ، وكان يشرف على هذه اللجنة الاستاذ خالدوف الاختصاصى البارز فى المخطوطات العربية ، والمرشح فى فقه اللغة ، وقد أشرف العمل على الانتهاء وهذا الفهرس يحتوى 2500 صفحة ، وقد نظم هذا الفهرس تنظيما منهجيا على أساس الموضوعات ولا يفوتنا أن نذكر أن من جملة هذه النشاطات ، أحداث « دائرة المعارف الاسلامية » ، التى سنخصصها بدراسة مستقلة ، والى هنا ننتهى من موضوع دراستنا التى سنعود اليها لتتبع هذا النشاط ببقية بلدان العالم كما يدل على ذلك عنوان المحاضرة ، وكل ما نأسف عليه هو أن تحقيق كثير من هذه الكتب ، ذلك التحقيق الذى يشمل التقديم والتعاليق ، كان باللغات الاجنبية ، وقد طبعت هذه الكتب منذ قرن وزيادة كموسوعة امارى فى تاريخ صقلية التى طبعت سنة 1857 بليبزيق ، ثم أعيد طبعها من جديد ، وهو عبارة عن صورة طبق الاصل ولم يتعرض الناشر الى ترجمة المقدمة ولا التعاليق ولا يخفى أن دور صقلية فى تاريخ حضارة البحر الابيض المتوسط له أهمية كبرى وما قيل فى موسوعة تاريخ صقلية يقال فى كثير من نفائس المخطوطات التى حققها هؤلاء المستشرقون ، قدموا لها باللغات الاجنبية وأملنا أن يتولى تكميل هذا النقص جيلنا الصاعد من الباحثين ٠

الاسلام فى بلاد المجر

د٠ الحاج عبد الكريم يوليوس جرمانوس
استاذ العلوم الاسلامية بجامعة بودابست
ـ المجر ـ



لقد حدث تحول اجتماعى مبارك وعميق الغور فى تاريخ البشرية نتيجة ايحات النبى الكريم محمد وقدرته الخلاقة ٠ فبعد ان كانت قبائل شبه الجزيرة العربية وعبر قرون عديدة من الزمن تهدر طاقاتها سدى فى مواجهة الطبيعة القاسية المجدبة من جهة وفى الحروب القبلية المريقة لدماء الاشقاء من جهة أخرى ، فانها ، بعد نشر النبى الكريم لرسالته ، قد توحدت فى أمة عزيزة ، واصبحت ، بعد ان غدت ممتلكة للقوة المعنوية الضاربة الجذور فى الدين الحنيف ، ليست قادرة على التعايش فيما بينها وحسب ، بل قادرة كذلك على كسر شوكة جيوش امبراطورية فارس الساسانية وامبراطورية بيزنطة الشرقية المجاورتين رغم تفوقهما فى العدد والعدة ، وقادرة أيضا على اقامة دولة قوية فى الاراضى المفتوحة ٠

ولقد دلت الدولة العربية الجديدة ، فى ظل الخلافة الاموية ، على قدرتها الاقتصادية ، وحولت القبائل العربية وشعوب البلدان المفتوحة الى مجتمع جديد مرتكز

على التعاليم الخلقية للقرآن الكريم . وعقب سقوط الدولة الاموية فان العباسيين قد استطاعوا ، بالارتكاز الى تعاليم القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وباستغلال المعطيات والقدرات الفكرية للشعوب الاخرى التى انضمت تحت لواء الحضارة الاسلامية ، ان ينشئوا امبراطورية واسعة الامتداد ، اسبغت على الحضارة القديمة ثوبا من التعاليم الخلقية الدينية لم ينقذ التراث القديم وحسب بل قدم الدليل والمثل القيمين بالاحتذاء لشعوب أوروبا الغربية التى كانت تعيش تحت حكم الكنيسة المسيحية . كما ان الشعوب الآسيوية التى كانت تعيش فى بربرية متخلفة مثل : الاتراك والمغول قد تحولت الى الاسلام منشئة نتيجة لذلك حياتها كدول وكمجتمعات، تسود فيها احكام الشريعة ، التى هى النظام التشريعى المرتكز على التعاليم الخلقية للقرآن الكريم . اما الشعوب الاوروبية فلم تكن تعرف آنذاك الا النظام الكنسى القائم على اصدار الاوامر التى لا يقبل النقاش فيها والمرتكز على الطاعة العمياء وحسب . بينما كان الاسلام ، على نقيض من ذلك ، يتمتع بتعاليم متسلحة بالفلسفات القديمة ، وكان يضع التفكير وتحكيم العقل فى موضع الصدارة .

حيث ان الاسلام لم يعترف بنظام كالنظام الكنسى ، بما يستتبعه ذلك من أوامر وتوجيهات ، بل حدد هدف الحياة بالايمان ،وبالتفكير الممنوح للانسان وبتحكيم الفكر وبتنفيذ حقوق واجبات الانسان تجاه ربه ، خالق الكون، وتجاه أخوته من بنى الانسان. وبذلك فقد سما الاسلام على كافة ما سبقه من نظم دينية ، لانه يمنح البشرية المعرفة والمحبة ، دونما تمييز بسبب اللغة أو العرق ، كما يمنحها السلوى عبر الايمان الالهى.

ظهر المجريون بين جبال اورال قوما باسلين يعتمدون فى معيشتهم على صيد الحيوان والسمك ويتكلمون بلغة هى مزيج من الفنلندية والاستونية ، وقد هجروا وطنهم الاصلى منذألفى عام تقريبا مولين وجوههم شطر الجنوب الشرقى ، وبعد ان اجتازوا قلب آسيا الغربية امتزجوا بالاتراك الجواشن والباشقير بالقرب من جنوب نهر الفولغا وضفاف بحر قزوين امتزاجا دام خمسمائة عام ، واخذ المجريون عنهم فنى الزراعة والحرب ، وعلق باللغة المجرية الكثير من الالفاظ التركية القديمة خصوصا

فيما يتعلق بالزراعة ، وقامت بين الشعبين صلات رحم وقربى ، فتحول الشعب المجرى من صيادى اسماك الى رجال عسكريين يحاكون الاتراك فى الكثير من مظاهرهم.

ولقد عاش المجريون قبائل راحلة كالبدو ، وكان لكل قبيلة منهم زعيم تأتمر بأمره، وكانت هذه القبائل تتحد وتتالب عند نشوب الحروب ، لترد الاعداء عن البلاد ثم تعود الى سابق عهدها وعيشها ، ومن الغريب انه كثيرا ما انضمت قبائل اجنبية تركية وخزرية وقبرية الى المجريين الاصليين ، وكذلك قوم من البلغار أيضا .

ولقد تطورت القبائل المجرية ونمت حسب مؤثرات البيئة التى عاشت فيها . فبعضها آمن بالشامانية ، وبمعنى أوضح كانوا يعبدون ، وفقا لتعاليم الشامان الاكبر (الكاهن الاكبر) ،والآلهة ، الموهومة التى اعتقدوا انها توزع الخير والشر على البشر ، وفى فترة لاحقة وبعد ان استقر المجريون عبر ثلاثة قرون فى أراضى دولة الخزر فقد اعتنق الكثيرون منهم الديانة اليهودية . ولقد اثارت حياة القبائل المجرية اهتمام الكتاب العرب أيضا . ومثال ذلك ان أحمد بن يحيى البلاذرى ، الفارسى الاصل - والمتوفى عام 279 للهجرة - قد تحدث عن أولئك المجريين من قبيلة سوارد ، والذين انقطعوا عن بقية القبائل الاخرى زمن الهجوم الذى شنه البشينيو (البشناك) عام 276 للهجرة ، والذين كروا راجعين الى موطنهم القديم فيما وراء القفقاس . اما أبو اسحق الفارسى ، والذى سمى بالاصطخرى نسبة الى أسم اصطخر العربى لبرسابوليس الفارسية ، وكذلك ابن حوقل فانهما يتطرقان فى اعمالهما الادبية الى الحديث عن المجريين ، وذلك حوالى العام 318 للهجرة ، معتبرين أياهم شعبا مماثلا للبشكيريين . اما الكاتب العربى ، الفارسى الاصل ، محمد بن رسته فانه فى كتابه المسمى « كتاب الاعلاق النفيسة » يتحدث عن المجريين زاعما بأن : « المجريين هم عبدة نيران » الا انه من المؤكد ان قسما من المجريين قد وقع تحت تأثير الامبراطورية الفارسية ، واعتنق مذهب زاردشت كذلك . ودليل ذلك وجود العديد من الكلمات الفارسية فى اللغة المجرية .

وكانت نتيجة هذا الامتزاج بين المجريين والاجانب ان تولد جيل جديد وشعب جديد تأثر الى حد بعيد بالثقافة الفارسية ، وهناك الكثير من الالفاظ الفارسية المتعلقة بالصناعة أو بالافكار الدينية مبثوثة فى متن اللغة المجرية ٠

ولقد كانت تلك الالفاظ نتيجة تبادل تجارى بيننا وبين بلاد العجم وهذا التبادل كان منحصرا فى الاسلحة والاقمشة والحلى حتى انه من المشاهد فى ايامنا هذه ان الزينة والنقش وتطريز الملابس فى القرى المجرية هى فارسية الاصول ٠

وفى نهاية القرن الثامن للميلاد شدت هذه القبائل المجرية الممتزجة رحالها واتجهت شطر الغرب حيث اقامت هناك زهاء القرن من الزمن وذلك فى جنوب روسيا المعروف اليوم باسم أوكرانيا ، وفى هذه المنطقة هاجمتهم قبائل البجناق وهزمتهم فانشطروا الى نصفين :

احدهما وهو الاكبر اتجه صوب الغرب فاستقر فى جبال الكربات ، اما الشطر الآخر وهو الاصغر فعاد الى الشرق وقد اقتفت اثره بعض البعثات فى خلال اجيال عدة بقصد الوقوف على آثاره ، ولكن هذه البعثات لم تعثر حتى اليوم على شىء ٠

اما الشعب المجرى فقد وصل عام 283 هـ (896 م) من جبال الكربات الى بانونيا ، وهى المعروفة اليوم ببلاد المجر ، وهذا الشعب هو فى الواقع نتيجة تمازج بين المجريين الاصليين والسلافيين ، والشعب المجرى القديم ، أو بالاحرى القبائل المجرية آنذاك بدأ بشن غارات على البلدان المجاورة له بقصد نهبها والاستيلاء عليها ، حتى لقد بلغ فى غاراته تلك ألمانيا وايطاليا والاندلس ، ولكى تدرأ ألمانيا غارات المجريين عن بلادها ، شرعت تمهد السبيل للدخول فى النصرانية ، وتحت تأثير القائد المجرى اشتفان المقدس الذى نصب نفسه ملكا على البلاد ، وفيما بعد ذلك ، بدأ المجريون أيضا يدخلون فى النصرانية افواجا ، وكان بين هذه القبائل المجرية التى نزحت من موطنها الاصلى واقامت على ضفاف الدانوب ألوف من المسلمين ، وهم خليط شعوب متباينة كتجار ومزارعين اعجام وبلغار ، وقد ظلوا محافظين على شعائرهم الدينية واستوطنوا مناطق بالقرب من العاصمة بشت ، وانتشروا فى السهول الزراعية وأظهروا

براعة فى الشؤون التجارية والصناعية ، كما انهم قد اكتسبوا نتيجة لاتصالهم بالشرق الاسلامى ، وخلال أمد وجيز نسبيا ، مميزات اجتماعية واقتصادية ومكانة فى الدوائر الحكومية كذلك ·

وما كانت أوروبا آنذاك لتسمح باقامة الشعائر الدينية الاسلامية فى ممالكها ، ولذا حاولت حمل أولئك المسلمين على الارتداد عن دينهم وعلى اعتناق النصرانية ، وقد سنت القوانين الصارمة فى اضطهادهم ، مثال ذلك : اذا عاد التجار المدعوون بالاسماعيلية الى دينهم الاصلى ثانية ، بعد تعميدهم ، واقدموا على ختان أولادهم فانه يجب ابعادهم عن مقر سكنهم ونفيهم الى قرى أخرى ·

اما أولئك الذين يتوبون فانه يمكنهم البقاء فى امكنتهم · وبعد عشر سنوات اصدر الملك المجرى كالمان كذلك قوانين صارمة فى حق المسلمين المجريين ونقتطف منها النصوص التالية : اذا لاحظ شخص ما ان اسماعيليا يصوم طبقا لدينه وياكل مثل معظمهم ويمتنع عن أكل الخنزير ويغتسل حسب طقوسهم أو يقوم باى شىء ما طبقا لعاداتهم فانه يجب على ذلك الشخص ان يغدو مقبوضا عليه وتجرى مصادرة نصيب من ثروته · ويقول قانون آخر انه غير مسموح للاسماعيليين ان يزوجوا بناتهم من الاسماعيليين وانهم مجبرون على تزويجهم من نصارى · ولم يقتصر الامر على ذلك فقط ، فان القانون كان ينص على انه فى حالة ما اذا دعا نصرانى اسماعيليا للطعام فان عليه ان يقدم له لحم الخنزير ، لكى يجبره على كسر الواجبات الدينية ، وهذا القانون يبين لنا ان النصرانى كان له اصدقاء اسماعيليين يدعوهم لتناول الطعام وان الاسماعيليين كانوا يزوجون بناتهم من ابناء دينهم ، غير ان هذه القوانين التى اصدرها الملوك المجريون لم يجر تطبيقها فى اطار الحياة العملية ·

واسم الاسماعيلية اطلق عادة على المسلمين فى المجر ، وقد جاء هذا الاسم من اسماعيل بن هاجر الذى نزح الى جزيرة العرب · ولا يفهم من هذا انهم من الشيعة الاسماعيلية ، كما يعتقد فريق من البحاثة المجريين ، فهم من أهل السنة ، على مذهب أبى حنيفة · وجدير بالذكر ان الرحالة العربى الكبير ، ياقوت الحموى ، قد

أورد ان فى حلب قد كان عدد كبير من المسلمين المجريين وهم أعضاء بعثة رسمية مكونة من أربعين مجريا مسلمين أوفدوا لدراسة الفقه الحنفى تمهيدا لتعيين قضاة وائمة منهم فى بلاد المجر · وهذا الخبر المهم يدل على أهمية المسلمين فى بلادنا ، كما ذكر ياقوت أيضا ان مواطنهم فى المجر تزيد على ثلاثين منطقة ، وتوضح اسماء الكثير من هـــذه المستقرات ان أصل سكانها من المسلمين ، ففى المجر نجد ان كلمة بوسرمينى هى تحريف لكلمة مسلمان ·

وحينما عجزت موارد الدولة واصبحت فى حالة يرثى لها واضطرت الحكومة لان تضمن الضرائب من فريق من الناس فى مقابل ان يجبوها بانفسهم من المزارعين، وكانت الناقلة الاسلامية هى الملتزمة بتحصيل الضرائب للحكومة ، بل انها اقرضت الحكومة مبالغ عديدة مقابل ان تحتكر هى سك النقود ، وبذا استطاع المسلمون تأسيس عدة دور لضرب المسكوكات · وقد ظلت هذه النقود قيد التداول بعد قرن من ضربها ، ويوجد منها عدد كبير فى المتحف الوطنى فى بودابست ·

وكان هؤلاء المسلمون ذوى ثقافة عالية الى جانب انهم حملوا السلاح واعتبـــروا أنفسهم من المحاربين الاشاوس · وفى عام 557 هـ ، ارسل الملك المجرى جيزا الثانى خمسمائة سراسيتى (يعنى شرقيين) وهم المسلمون لمساعدة الامبراطور فريدريك فى حروبه · اما فى سنة 640 للهجرة ، فقد قاسى المسلمون المجريون شدائد ومصائب من طوفان التتار الذى غمر المجر ، وقد اختفوا من على مسرح الاحداث كمجتمع ، غير ان ذكراهم ظهرت فى اسم أسرة اسماعيلية من أصل اسلامى تدعى سراسينى ازدهرت خلال القرن الثامن للهجرة ، وكلمة سراسينى هى اشتقاق من سراسين بمعنى الشرقى، وقد ظهرت على الكثير من شعارات الاسلحة على شكل رأس زنجى ، اما فى العصور الوسطى فقد كانت كلمة سراسين تعنى عامة مسلمى اسبانيا ·

وبعد انتهاء القرون الوسطى بدأ فصل جديد فى التاريخ وبعد ان استولى العثمانيون على مصر اتجه السلطان سليمان القانونى صوب بلاد المجر ، واستولى على جزء كبـير منها وعلى عاصمتها بودا أو « بودين » واتخذ الاتراك منها ثكنة عسكرية مهمة · ولقد ازدهرت الثقافة الاسلامية التركية فى بلادنا فى غضون قرن ونصف وشيدت مساجد رحبة ومدارس علمية درست فيها الشريعة الاســلامية ، واعتنق عدد غير قليل مـــن

المجريين الاسلام الدين المبين ، ودخلت كلمات تركية عديدة فى لغتنا واعتاد الناس الاطعمة الشرقية التى لا تزال تمثل دورا مهما فى الطباخة المجرية ، كما ان الفن الموسيقى قد اثر فى الحان المجر وفى أسلوب التغنى ٠

ولما كسرت شوكة العثمانيين وارتد الجيش الفاتح عن اسوار فيينا نزحوا الى بودا ، وتنازلوا عن قسم كبير من بلاد المجر فدخل فيما بعد فى حوزة الجيش النمساوى٠ وقد اضطهد النمسويون الكاثوليك المجريين البروتستانتيين ، مما ادى الى اندلاع ثورة المجريين ضد اسرة هابسبورغ الحاكمة واخذ القائدان المجريان توكولى وراكوتسى على عاتقيهمامهمة تحرير البلاد من نير النمسا ٠ وخلال توقد تلك الثورات مد الخليفة العثمانى يد المساعدة للمجريين ، ولما انتهت الثورة بخيبة المجريين لجأ قوادها الى الآستانة حيث لقوا هناك ترحيبا كبيرا بهم ، وظلوا معززين مكرمين الى ان ماتوا ودفنوا فى الارض الاسلامية ٠ وكذلك لجأ قواد الثورة الكبرى فى المجر فى عام 1265 هجرية الى دار الخلافة فاستظلوا فيها بحماية الخليفة واعتنقوا الدين الاسلامى ودخلت طائفة منهم فى الجيش العثمانى جنودا واشتهروا ببسالتهم فى حروب القرم ٠

وبعد خروج العثمانيين من البلاد لم يتبق فيها من المسلمين الا عدد ضئيل جدا ٠ وكانت الغالبية منهم من أصل يرجع الى بلاد البوسنة وكان أكثرهم من العمال وصغار التجار ٠ وقد اختاروا احدهم اماما لهم وكانوا يجتمعون لاداء صلاة الجمعة فى احدى قاعات احد الفنادق الكبرى ٠ حيث لم يكن لهم مسجد خاص بهم ٠ وعقب الحرب الكونية الاولى قام احد المعلمين البوسنياك واسمه دوريتش حلمى بتنظيم المسلمين البوسنياك ، ثم بعد قرون من الانقطاع ، وفى عام 1342 هـ ، ارتفع الآذان من جديد من احد ابراج بودا ٠ ولقد انتشر نبأ ذلك فى العالم كله عن طريق الصحف السيارة وافعم نفوس المسلمين بالغبطة ٠ وبعد ذلك بدأ دوريتش حلمى باقامة الصلاة بشكل منتظم فى قاعة احد الفنادق الكبرى فى بودا ، كما ان العديد من المجريين قد اعتنق الدين الاسلامى ٠ وجدير بالذكر ان بودا قد احتفظت على الخصوص بالكثير من الآثار الاسلامية المتحدرة من العهد العثمانى ، حيث ان هذا القسم من العاصمة بودابست ،

هو الوحيد فى أوروبا الذى يحتفظ بين جدرانه بقبر احد رؤساء الطريقة البكتاشية وهو جول بابا ·

ولقد كان من المقدر للبوسنياكى دوريتش حلمى ان يواصل نشر تعاليم الاسلام بنجاح لولا وقوع الاحداث التى حالت بينه وبين ذلك · ففى عام 1326 هـ ، اقدمت امبراطورية النمسا ـ المجر على ضم بلاد البوسنة اليها ، الامر الذى اعتبره الاتراك عملا عدوانيا ضدهم ، واقدموا فى استانبول على مقاطعة المنتوجات والسلع المجرية · اما السلطات المجرية فقد اقدمت ، فى محاولة لتخفيف حدة السلوك العدائى التركى ، على الاعتراف بعبد اللطيف الذى كان يعمل محاضرا منذ سنوات فى جامعة بـودابست، بصفته اماما رسميا للمسلمين فى المجر · وهذا الامر أوهن من عود المجموعة الاسلامية الصغيرة · وكثيرون منهم لم يعرفوا من هو الامام بالضبط : أهو عبد اللطيف التركى ام هو دوريتش حلمى البوسنياكى ؟ اما واقع الحال آنذاك فقد كان يبين بان لدوريتش حلمى حوالى 300 من الاتباع من بوسنياك ومجريين ، ممن كانوا يؤدون الصلوات بانتظام ويتقيدون بأحكام الشريعة · اما عبد اللطيف التركى ، الذى اعترف به اماما رسميا ، فلم يكن له اتباع البتة · ولقد ازدادت حدة ذلك الانقسام المؤسف ، وخلال ذلك فان القسم الاكبر من البوسنياك قد هاجروا من المجر الى يوغوسلافيا نتيجـة للازمة الاقتصادية العالمية آنذاك ، وهكذا لم يتبق من المسلمين فى بودابست الا القليل القليـــــل ·

وفى مطلع عام 1349 هـ ، وصل الى بودابست ممثل الطائفة الاحمدية فى الهند المسمى عياظ خان ، وحيث انه كان ملما باللغة المجرية ، فقد شرع فى نشر تعاليم الطائفة الاحمدية الخارجة عن تعاليم الاسلام الصحيحة ·

وفى هذا المجال اذكر بأننى قد عملت مدرسا فى جامعة سنتينيكاتان (فى البنغال) وذلك ما بين 1348 ـ 1351 للهجرة ، حيث كنت استاذا محاضرا فى العلوم الاسلامية · وهكذا فقد توجب على ان اتناول الطائفة الاحمدية كذلك · ولقد تحدثت فيها عـن نشوء الاحمدية : ففى عام 1307 هـ، وفى بلدة كاديان الواقعة فى شمال الهند فان الملاك الصغير المسمى ميرزا غلام أحمد قد فاجأ المحيطين به هناك بانه قد انعم عليه

برؤيا الهية وانه هو المهدى المنتظر • وقد قام بالتعريف برؤياه تلك فى كتب باللغتين الاوردية والانجليزية ، وسرعان ما غدا موضع اصطدام عدائى من اتباع طائفة آرجاسمادس الهندوكية ، الذين زعموا بأن الفلسفة الهندوكية هى التى ستنقذ الانسانية ، ورغم ان مسلمى الهند قد اعلنوا بأن ميرزا غلام احمد ليس الا دجالا مخاتلا الا انه خاض معهم الصراع بمراس شديد : وفى عام 1308 هـ أنشأ مجلة باللغة الانجليزية باسم « ريفيو أوف ريليجين » ـ مجلة الدين ـ كان يبين على صفحاتها بعين الانتقاد الحياة الدينية للعالم • ولقد بنى مزاعمه على أساس من « ان المسيح لم يمت على خشبة الصليب ، وانه انما فقد وعيه فقط ، ثم قام وتلاميذه بانزاله عن الصليب وعالجوه على مدى أربعين يوما بدلكه بمرهم سحرى المفعول ، اعاده الى وعيه ثم انطلق عقب ذلك صوب المشرق ، ليعثر على اسباط اسرائيل العشر المفقودة وليعيدها الى الطريق القويم ، وامضى بعد ذلك سنين عدة يعلم فى افغانستان وفى كشمير حيث توفى هناك بعد ان عمر مائة وعشرين عاما وذلك فى مدينة سرينيغار » •

ولقد قمت بكتابة نقد جامع وقاطع وكشف لتخرصات ميرزا غلام أحمد المذكورة آنفا وذلك فى كتابى الله أكبر ـ برلين 1357 هـ ـ وكتابى سوللا أورما دى محمد ـ ك ميلانو 1357 ـ • اما فيما يتعلق بقبر المسيح المزعوم فقد تاكدت خلال اقامتى فى سرينيغار فى كشمير عام 1350 هـ ، ان ما هو مكتوب على شاهد ذلك القبر وهو « جوس اساف » ـ أى المسيح الجامع ـ (من فعل جمع) ، انما هى فى الاصل بوذا اساف وهى الكلمة المشوهة مبنى ومعنى لكلمة بوديساتوا البوذية وهى تعنى « سيدنا (سيدنا بوذا حتى قبل مولده على الارض) » •

غير ان كل ذلك لم يكن وليد خيال ميرزا غلام أحمد حيث انه قد نقل ذلك من كتاب نوتوفيتش الذى يتحدث فيه عن « أحد الاناجيل المفقودة » • وفى كتابه ذاك يزعم ذلك الكاتب الدجال بأنه قد عثر فى احد الاديرة البوذية فى التبت على احد الاناجيل المفقودة ، وهو « انجيل » يقول بان المسيح قد قام فى سنى شبابه بزيارة الهند حيث « استنشق » هناك كافة تلك التعاليم التى قام بالتبشير بها فيما بعد • وهكذا فان ميرزا غلام احمد قد قام ، بشكل مخادع ،

باستغلال ذلك الزعم الكاذب ، وهو المتعلق برحلة المسيح المزعومة الى الهند فى سنى شبابه ، ولكن مع تحويل التبشير بتعاليمه الى فترة **ما بعد وفاته** ٠

اما فيما يتعلق بالقبر القائم فى سرينيغار فقد تأكد لى بعد دراسة وتمحيص أسلوب البناء فيه ، انه يرجع فى الغالب الى القرن العاشر للهجرة ، وان الاقرب الى التصديق كونه يشتمل على جثمان احد **الاولياء المسلمين** ٠

وبالطبع فان الاحمديين لم يستقبلوا براهينى العلمية تلك بطيبة خاطر ، حيث انهم اصروا على ايمانهم بتلك المعجزات المزعومة ـ بدلا من تصديق الحقائق العلمية الموضوعية ـ ، وهى « المعجزات » التى قام ميرزا غلام أحمد بتنفيذها مستخدما مراهمه ولعناته والتى أودت بحياة العديد من اعدائه الى مهاوى الردى ٠

ولذا فلم يكن غريبا اننى استقبلت النشاط التبشيرى لعياظ خان فى بودابست بشعور من الشكوك ، وذلك على الرغم من اننى كنت على سابق علم بأن الاحمديين يقومون بنشاطات تبشيرية فى مختلف انحاء العالم ٠ وفى أوروبا وأميركا قاموا بانشاء جوامع عديدة كما ان الكثير من الشخصيات البارزة قد آمنت بتعاليمهم ، بعد ان دخلوا فى صفوف هذه الطائفة الاسلامية الغريبة الطابع ٠

كما ان عياظ خان نفسه قد لجا الى اسلوب جد غريب للتمهيد لنشاطه التبشيرى فى بودابست : ففى احد الايام وعند الظهيرة ، حيث تكون الحركة على اشدها ، وقف فى احدى تقاطعات احد الشوارع الكبيرة والشديدة الحركة ثم سجد وشرع فى الصلاة ٠ ونتيجة لذلك انشلت حركة السير ، وجاء احد رجال الشرطة وطلب اليه ابراز أوراق اثبات شخصيته ، كمقدمة لايقافه ٠ وعندئذ شرع عياظ خان فى مناقشة مع الشرطى ذاك آخذا عليه ازعاجه وهو يؤدى صلاته ٠ ولقد تجمع حولهما حشد كبير من الناس ، وهو حشد كان متعاطفا لا مع الشرطى،وانما مع الهندى المثير ، المعتم بعمامة لافتة للنظر ٠ ولقد تطلب امر تفريق الجمهور المحتشد جهدا كبيرا ، ورغم ذلك فان الكثير من الناس قد رافقوا عياظ خان الى مركز الشرطة ، حيث جرى تغريم عياظ خان بمبلغ من المال جراء اخلاله بالامن ، ولقد صدق الكثير من الناس كونه كان على حق ، واقدموا بمنتهى سلامة النية والطوية على الدخول فى الطائفة الاحمدية ، وذلك على يقين منهم بانهم انما قد

دخلوا فى الدين الاسلامى ، وأصبحوا بذلك مسلمين . ولم يمض الا وقت قصير حتى راوح عدد الاتباع الجدد الثلاثمائة شخص ، وقدم احد الناس الميسورين منزله الكبير ليكون مسجدا تؤمه الطائفة ، وحيث جرت فيه اقامة الصلوات بشكل منتظم . ولقد قام عياظ خان بالتعريف بتعاليم الطائفة الاحمدية عن طريق منشورات اصدرها باللغة المجرية . وقد ظهر الى حين ان تلك الطائفة ستقوى ويشتد عودها فى المجر ، الا ان وقوع الحرب العالمية الثانية ثم القصف المدمر لبودابست ودخول الجيوش المنتصرة اليها ، تبعها انحلال وتفرق شمل تلك الطائفة .

وفى عام 1367 هـ ، ومع تقسيم شبه الجزيرة الهندية الى الهند وباكستان ، وانتهى مركز كاديان وتوقف ، وتابع الاحمديون نشاطاتهم فى ربوة القائمة فى باكستان . وقبل امد قصير اعتبرت الحكومة الباكستانية طائفة الاحمديين اقلية غير مسلمة ، وبذلك فانها قد شلت نشاطات تلك الطائفة .

ولكن ان مضى مجد الاسلام المجسم فى مؤمنيه فما مضت الثقافة الاسلامية ابدا ، والجامعة المجرية افتخرت بعلمائها من امثال ارمين فامبيرى الذى سافر الى تركيا واسلم، وذهب باسمه رشيد افندى الى آسيا الوسطى لدراسة اللغات التركية ، وتلميذه ايغناتس غولد زيهر الذى أصبح تلميذ الشيخ العالم محمد عبده بالقاهرة وبعد عودته الى بلادنا صنف كتبا نفيسة عدة شرح فيها اركان الدين الاسلامى والعقائد المكرمة ، وأنا شخصيا افتخر بكونى تلميذه ، وقد مثلت دراسة التاريخ الاسلامى فى كرسى التدريس بجامعة بودابست ، الى حين تقاعدى وكان عمرى آنذاك 71 عاما ، ولقد صنفت آثارا فى تاريخ الاسلام المدنى وفى الادب العربى القديم والحديث ، واشتهر كتابى عن حجى بيت الله فى مكة المكرمة تحت عنوان : الله أكبر ، وترجم الى لغات شتى . وافتخر بأننى قد كنت العضو المسلم الوحيد فى مجلس النواب المجرى ، وامثل الدين الاسلامى لا على كرسى التدريس فقط بل بمجهوداتى الشخصية فى الحياة الاجتماعية ، ولا اترك الوفاء بالواجب على نحو مصلحة المسلمين والعروبة الى انتهاء ايامى .

القانون والتعريب من خلال التجربة الجزائرية (1)

د. أحمد مطاطلة
الأمين العام
لجمعية الحقوقيين الجزائرية

من مميزات المناهج الحديثة في الدراسات والبحوث العلمية هي انها تقرب بين المفاهيم وتكون بينها روابط تجعلها تتجانس احيانا واحيانا تتمازج الى درجة تتضاءل معها الفروق وتتلاشى لا سيما اذا كانت هذه الدراسات تجرى حول مواضيع تسير نحو هدف مشترك كموضوع القانون والتعريب اللذين يتكاملان شكلا ومضمونا . الا أنه لا يتصور ان يصدر قانون في قطر عربي دون ان يكون مصاغا في ألفاظ عربية أو موضوعا في شكل معرب على الاقل . غير ان هذا ليس هو المقصود بذاته ولكن المقصود كغاية هو نقطة الانطلاق التي يلتقي فيها القانون والتعريب كمفهومين ثقافيين .

(1) عرض ألقاه في مؤتمر الحقوقيين العرب المنعقد أخيرا في بغداد .

اهمية التعريب ثقافيا وحضاريا

ان القانون فى تعريفه العام يعنى مجموعة القواعد القانونية الموضوعة لتنظيم العلاقات بين الافراد فيما بينهم أو بين الافراد والدولة فى نظام اجتماعى واحد من أجل مصلحة عامة مشتركة تسهر على تنفيذه سلطة قائمة يرمز لها بالدولة ، والتعريب يعنى عملية نقل للمعانى من لغات غير عربية الى اللغة العربية ، تصاغ فى ألفاظ متناسبة ومتناسقة فى صياغة فنية تعطى المعانى المنقولة شكلا معوضا أصالة عن الشكل السابق وقد يعطيها الشكل الجديد المعرب قوة وقد يكسبها جدة فتصبح منقولة وكانها لم تنقل وهذا هو المعنى الثقافى للتعريب وهو المنهج الذى اتبعه العرب الاوائل فى تعريب العلوم والآداب والفنون التى عرفها اليونان والروم والفرس فانتفعوا ونفعوا البشرية وأثروا الحضارة والثقافة الانسانية بتجديد ما عربوه وتطويره وتكييفه تكييفا ملائما لواقعهم وعقيدتهم وتقاليدهم وبذلك سجلوا مفاخر وأقاموا لهم مجدا وعزا ومنعة سجلت آثارها فى أحقاب زمنية مشهورة ٠

فالتعريب اذن وطبقا لهذا المفهوم الحضارى هو مكسب وثروة وبعيدا عن أن يكون مجرد ترجمة ونقل بسيط لما كتب وسجل بلغات اجنبية الى ألفاظ عربية ، وهو اذا أخذ بمفهومه الحضارى هذا ومعناه العلمى الواسع فسيعطينا طاقة جديدة نتزود بها فى مسيرتنا من أجل قيام ثقافة عربية للقانون متحررة من العقد ومركبات النقص التى ورثناها عن عصور الانحطاط أو أورثنا اياها الحكم الاجنبى الظالم ٠

ان العلاقة بين القانون والتعريب تتحدد بحسب حاجتنا الى هذا الاخير ومن ثم يصبح التعريب اما مسألة ثقافية بحتة واما مسألة ثقافية وسياسية فى نفس الوقت ٠ وهذا يخضع لواقع الاقطار العربية المتواجدة فى مناطق مختلفة من جهة ولمدى سيادة اللغة العربية فى مجالات التعليم والاقتصاد والادارة فى كل قطر من جهة أخرى ٠ ففى أقطار المشرق العربى مثلا لا يمكن ان يتخذ التعريب شكله الحاد بمثل الشكل الذى يوجد له فى اقطار المغرب العربى ، وبالاخص الجزائر أو المغرب الاوسط كما تسمى جغرافيا ٠ ذلك ان التعريب فى المشرق يقتضى الاستزادة من الثروات الفكرية المعاصرة

فى ميدان القانون عن طريق نقل ذلك من النتاج الاجنبى الصادر باللغات الانكليزية أو الالمانية أو الروسية أو غيرها مما يعطى نفسا جديدا للانطلاقة العربية فى مجال النهوض بالدراسات القانونية وحتى فى وضع واصدار التشريعات ، ففى القانون الدولى مثلا يمكن للمؤسسات القانونية العربية ان تحرز على امكانيات كبيرة للمساهمة فى تطوير البحوث القانونية المتعلقة بالفضاء وقانون البحار واتفاقيات ومعاهدات السلام واستغلال الثروات الطبيعية سواء كانت فى طبقات الارض أو على سطحها أو فى أعماق المحيطات وحتى فى الميادين الاجتماعية كاتفاقيات التعاون فى مكافحة الاجرام وحوادث الطيران وغيرها ومسائل النقل والمواصلات البرية والبحرية والجوية ، لا سيما وقد أنشئت مؤسسات متعددة فى هيئات علمية تعمل على ايجاد المقابل من الالفاظ العربية لاسماء المخترعات العلمية الحديثة باللغات الاجنبية كمجامع اللغة العربية ومكتب التعريب التابع للجامعة العربية والتى نأمل ان تتطور الى أكاديمية علوم عربية جامعة تنتفع بنتاجها كل الاقطار العربية فى مشرقها ومغربها · فالتعريب بهذا المعنى وبالنسبة للمشرق العربى اذن هو مسالة ثقافية تبحث فى نطاق حضارى وتحل فى نطاق الدور الذى تؤديه الامة العربية فى المساهمة الفعلية لانشاء ثقافة قانونية قائمة على قاعدة فكرية عربية أصيلة ·

اما فى المغرب العربى وخاصة فى الجزائر فان التعريب يتخذ شكلا مغايرا ، لانه أكثر من مسالة ثقافية التى قد توجد حتى فى الدول المتقدمة صناعيا كالاتحاد السوفييتى أو الصين أو اليابان بل انه مسالة كيان ومسالة مصير شعب وبالتالى فهو مسالة سياسية تقوم على أساس يتعلق بسيادة لغة محتل أجنبى سابق فى بلد أصبح مستقلا ذا سيادة ولهذا لا أكون مبالغا اذا قلت ان التعريب فى الجزائر عمل من أعمال السيادة القومية الذى لا يقل عن أى عمل آخر من الاعمال التى تحققت فى ميدان التحرر الاقتصادى والسياسى ، وانه ثورة فى الثقافة لابد من النهوض بها والا بقيت بلادنا خاضعة للتبعية الثقافية الفرنسية لا سيما وان التاريخ ما زال يحتفظ لنا بذكريات أليمة عن الاستعمار وطريقة المحتلين فى محاربة اللغة العربية ·

وضعية اللغة العربية فى بداية الاحتلال الفرنسى للجزائر

فى بداية فترة الاحتلال التى كانت بمثابة المرآة الكاشفة للوجـه البشع لسياسة التضليل والمغالطة التى سلكها الغزاة المحتلون تجاه سكان الجزائر العربيـــة وهى سياسة بدأت باظهار نوع من اللين نحو الثقافة العربية والدين الاســـلامى ، حتى يستطيع المستعمرون كسب الطبقة المثقفة وعزلها عن المقاومة ، لكن هذه الحيلة لم تنطل على أحد وتنبه لها الاحرار من ابناء العروبة فى الجزائر حيث أدركوا ان الوطن واللغة والدين شىء وسقوط الحكم التركى شىء آخر ، لان سلطات الاحتلال حاولت فى البداية ان تتظاهر وكأن المعركة انما هى من أجل تخليص الشعب الجزائرى من طغيان الحكم الاقطاعى التركى ، بل ذهبت الى أكثر من هذا فادعت بانها جـــاءت لانقاذ ملايين الجزائريين من الجهل والبربرية بادخالهم الى النظام والمدنية غير أن حبل الكذب قصير كما يقول المثل اذ سرعان ما كشف الثعلب الاستعمارى عن خبثه فأخذ يضيق الخناق شيئا فشيئا على اللغة العربية باعادة تنظيم الادارة وتحويلها من عربية الى فرنسية لا سيما بعد ظهور الامير عبد القادر على رأس المقاومة المسلحة . ثم بعد خفوت هذه المقاومة نتيجة للتآمر والغدر اللذين كانا سلاحا قويا فى يد العدو فاستطاع أن يرجح كفة الانتصار لصالحه ، وما ان استقر الامر لسلطات الاحتلال حتى بادرت الى خلق جميع الوسائل للقضاء على اللغة العربية وتجريد الجزائر من شخصيتها القومية ونادت بها جزءا من فرنسا وألحت على هذا فى قوانين اصدرتها تقضى بالحاق الجزائر بفرنسا .

ووصفت الجزائر بانها بلد ليس له تاريخ واضح وان شعبها مكون من خليط وبقايا أمم تعاقبت على حكم البلاد فى احقاب زمنية مختلفة ، وبالتالى فشعب الجزائر ليس عربيا ولا يمكن نسبته الى العروبة . وهكذا تعرضت الجزائر منذ سنة 1830 تاريخ سقوط الدولة الجزائرية الى نوع من المسخ والتشويه انعكست على أهم مقومـــات شخصيتها الاساسية وهما اللغة العربية ، والعقيدة الاسلامية ، وما كانت اللغـة العربية ولا الدين الاسلامى ليكونا هدفا لهذا المسخ والتشويه الا لانهما كانا يمثلان الركن الحصين لانتساب الجزائر بارضها وشعبها الى الامة العربية والى الحضارة العربية

التى كان لها شان بعيد فى نقل مآثر الحضارات السابقة وتطويرها وتهذيبها لتصبح قاعدة سليمة لانبعاث الحضارة الحديثة ·

ان النظام الاستعمارى الفرنسى الذى كان مبعثه الطمع والشراسة والحقد العنصرى الموروث عن الحروب الصليبية قد أودى بكل معالم الشخصية العربية فى الادارة والثقافة والقضاء والسياسة منذ ان خضعت الامور الى مقاليد المعمرين فى الجزائر · وكان السلاح الاول فى هذا هو العنف والاضطهاد ، العنف فى تخريب المعاهد والمدارس وتحويل المساجد الى كنائس والاضطهاد بالاستيلاء على الاموال والقضاء على الحقوق والحريات واخضاع السكان الجزائريين الى نظام عنصرى اشتهر باسم (لانديجينا) والذى قسم البلاد الى مناطق خاضعة لنظام عسكرى ومناطق خاضعة لنظام مختلط يخضع فيها الاهالى أو كما يسميهم هذا القانون Les indigènes لرقابة دائمة من سلطات الاحتلال ، فمنع الجزائريون من التعليم بلغتهم العربية وفقدت البلاد ذلك الازدهار الثقافى الذى كان منتشرا فى المدارس والمعاهد والجامعات التى كانت موجودة فى مدن تلمسان ووهران وبجاية وقسنطينة حسب اعتراف الفرنسيين أنفسهم ، فهذا المؤرخ الفرنسى بولارد Poulard فى كتابه التعليم فى الجزائر قبل سنة 1830 L'enseignement en Algérie avant 1830 يقول : «كتاب الجزائر فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر مراكز ثقافية مزدهرة كانت تدرس فيها الفلسفة والآداب والعلوم المختلفة من طب وفلك وطبيعة وسياسة وغيرها من طرف اساتذة لامعين » · وقال السيناتور كومب فى مجلس الشيوخ الفرنسى : « ان الجزائر كان فيها عند احتلالنا لها أكثر من ألف معهد ثانوى وعالى » ، ويضيف فالسين استرهازى Walsin Esthazy فى مجلة التاريخ الحديث والمعاصر « عدد يوليو ـ ديسمبر 1955 تحت عنوان : الحالة الثقافية والاخلاقية فى الجزائر سنة 1830 ·

ان نسبة الامية فى الجزائر سنة 1830 كانت أقل منها فى فرنسا بالنسبة لتعداد السكان أى انها كانت أعلى فى فرنسا » · ويؤكد بولارد المذكور آنفا : « ان احتلال فرنسا للجزائر أحدث فوضى عامة فى ذلك العهد بين العلماء والمفكرين وكثير منهم هاجروا البلاد » ·

وكانت المدارس العربية تغلق وأموالها تصادر ومعلموها يلقى بهم فى السجن أو فى المنـفى ٠

وتمشيا مع الخطة الرامية الى سحق اللغة العربية فى الجزائر أصدرت سلطات الاحتلال خلال سنة 1904 قانونا يمنع أى معلم عربى ان يتعاطى مهنته الا برخصة تحدد نشاطه وفق شروط اهمها :

1 ـ اقتصار التعليم على حفظ القرآن لا غير ٠

2 ـ عدم التعرض لتفسير الآيات التى تدعو الى التحرر من الظلم والاستبداد ٠

3 ـ استبعاد دراسة التاريخ العربى الاسلامى والتاريخ المحلى وجغرافية القطر الجزائرى والاقطار العربية الاخرى ٠

4 ـ استبعاد دراسة الادب العربى بجميع فنونه ٠

ولم يكن هدف الاستعمار من خنق العربية هو محو الشخصية الجزائرية واحلال الفرنسية محلها فحسب بل كان أيضا يرمى الى الجهل واسدال ستار الظلمـات على الجزائر وعزلها عن العالم العربى عزلا كليا ولم يكن يسمح حتى بتعليم اللغـة الفرنسية للجزائريين الا بخصوص القدر الذى يحتاج اليه من أعوان له فى مهمتـه من أجل السيطرة والمحافظة على بقائه وتدلنا على هذا الاحصائيات الفرنسية لسنة 1955 التى تقول : ان نسبة الامية فى الجزائر سنة 1954 بلغت 94٪ بين الرجال و 96٪ بين النساء ٠

النضال الشعبى من اجل اللغة العربية وضد الادماج

ان هذه الوضعية السيئة أدت الى ظهور حركة قوية ورد فعل وطنى عنيف ضـد مخطط التجهيل ومحاولة الادماج فى فرنسا ، فارتفعت أصوات الاحرار تنادى على لسان الشيخ عبد الحميد بن باديس الذى رد بعنف على مزاعم المستعمرين الفرنسيين القائلة بان شعب الجزائر ليس له تاريخ واضح ولا صلة له بالعروبة فقال فى نشيده المعروف :

شعـــب الجزائــــر مسلـــم | والى العـــروبـــة ينتســـب
من قـــال حـــاد عن أصله | أو قـــال مـــات فقـــد كـــذب
أو رام ادمـــاجـــا لـــــه | رام المحـــال مـــن الطلـــب

وكان يقول فى الرد على دعاة ادماج الجزائر فى فرنسا : « الجزائر لم تكن فرنسا وليست فرنسا ولا يمكن ان تكون فرنسا ولا تريد ان تكون فرنسا » . وأعلن شعاره المشهور « الجزائر وطننا والاسلام ديننا والعربية لغتنا » .

ومآثر الجزائريين فى الكفاح من أجل اللغة العربية معروفة فى كثير من أشعارهم وأدبهم كالشعراء محمد العيد وأحمد سحنون ومفدى زكرياء وغيرهم ، وقد نال الشهادة عدد من المكافحين من أجل اللغة العربية كالاديب أحمد رضا حوحو والشيخ العربى التبسى مدير معهد عبد الحميد بن باديس سابقا ونائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والشيخ العدوى وأحمد بوشمال الذين اغتالهم الجيش الفرنسى فى بداية الثورة التحريرية وعشرات من امثالهم خلال استمرار هذه الثورة . لكن ورغم هذا القمع الوحشى فان ارادة الكفاح لم تضعف ووجدت اللغة العربية دعاة لها وابناء أوفياء أخلصوا لها وضحوا من أجلها فنهضوا بها فى المدارس الحرة التى كان الشعب يبنيها بماله حتى تجاوز عدد المدارس الحرة الابتدائية وثانوية المائتين . وقد عمدت السلطات الاستعمارية الى غلقها بمجرد اندلاع الثورة التحريرية فى فاتح نوفمبر 1594 ، واحالت بعضها الى محتشدات أو مراكز للجيش الاستعمارى الذى أوفدته فرنسا لمحاولة قمع الثورة المسلحة بقيادة جيش وجبهة التحرير . لكن هذا الاسلـــوب من الاضطهاد والعنف باء بالفشل اذ تصدى له الشعب بوعيه الثورى تحت قيادة جبهة التحرير برد فعل قوى وأخذ الناس يزدادون ايمانا بلغتهم العربية واقبلوا على تعلمها وتحولت السجون والمحتشدات ومراكز التجمع الى شبه مدارس سرية لتعليم اللغة العربية .

والاهم من هذا هو ان القيادة الثورية كانت تعد لجنود جيش التحرير الذين عطبوا فى الحرب وأصبحوا غير قادرين على مواصلة الكفاح المسلح مراكز خاصة يتعلمون فيها الدروس بالعربية فارتفع عدد المتعلمين من الاميين من الجنود وتمكنت الدولـة

الجزائرية بواسطة هذا العدد من سد الفراغ بعض الشيء فى التعليم الابتدائى • وقد واصل عدد من هؤلاء الجنود الذين كانوا فلاحين اميين بسطاء فى عهد ما قبل الثورة دراستهم الجامعية بعد الاستقلال وحصلوا على شهادات عليا من جامعات الجزائر ومن جامعات أجنبية ، ومنهم من يعمل الآن فى القضاء ومنهم من عاد الى الجيش ومنهم من التحق بسلك المعلمين كل هذا كان بفضل التوجيهات الثورية لجبهة التحرير وبفضل الدافع القوى الذى كان يتمثل فى ارادة الشعب ان يتخلص من لغة المحتل ليرفع راية اللغة العربية • وقد تغير الوضع بالنسبة للغة العربية وأصبحت هى اللغة الرسمية للبلاد منذ استرجاع الاستقلال سنة 1962 •

وضعية اللغة العربية بعد استرجاع الاستقلال •

وتحولت من لغة مسودة الى لغة سائدة الا انها مع ذلك اصطدمت بصعوبات سببها ظروف مخلفات الحرب ومنها الفراغ الرهيب الذى تواجدت فيه المدرسة الجزائرية والادارة والقضاء نتيجة لانسحاب الاوروبيين ـ الغير مأسوف عليه طبعا ـ انسحابا جماعيا بمؤامرة مدبرة قصد بها ترك البلاد فى دوامة من العجز الكلى فواجهت الدولة الجزائرية الفتية أزمة مصيرية فيما يتعلق بالتعريب اذ وجدت نفسها أمام ضرورة لابد من تحملها مهما كانت عواقبها وهى ان تسير بالامور كما هى عليه حتى يستقر الوضع وتتكون اطارات جديدة تعمل باللغة العربية لكن ورغم هذا فان الدولة الجزائرية لم تستسلم فى الواقع كليا الى هذه الضرورة وخاصة فى ميدان التعليم اذ سارعت باتخاذ بعض القرارات الحاسمة تقضى :

1 ـ بترسيم اللغة العربية فى جميع مستويات التعليم عند بداية الموسم الدراسى الاول لعام (62 ـ 63) •

2 ـ الشروع فى تغيير نظام المدرسة الموروثة عن النظام الاستعمارى بتعريب السنة الاول سنة 1964 ، وتعريب السنة الثانية سنة 1966 ، والسنة الثالثة سنة 1968 •

3 ـ انشاء مدارس اعدادية وثانوية معربة تماما لتستقبل الجيل الذى تكون فى المدارس العربية الحرة ولتكون نموذجا لتعليم المستقبل •

4 ـ فتح مجموعة من الاقسام المعربة بالمدارس الاعدادية فى سنة 1969 استجابة للحاجة المتزايدة الى هذا النوع من الاقسام، أعنى الصفوف ٠

5 ـ الشروع فى تعريب الفلسفة والمواد الاجتماعية ماعدا الجغرافيا فى كل المراحل نظرا لاهمية هذه المواد فى تكوين المواطن واتصالها المباشر بالجوانب الروحيــــة والعقائدية ٠

6 ـ تعريب الجغرافية والعلوم ـ دراسة الهيئة ـ فى المرحلة الابتدائية ٠

7 ـ جعل اللغة العربية مادة اجبارية فى جميع المراحل وفى جميــع الامتحانات المدرسية والمهنية ٠

كانت هذه هى المراحل الاولى من التعريب المدرسى، اما المرحلة الثانية فبدأت باصلاح النظام التعليم الرامى الى تعريب المدرسة الجزائرية مع بداية المخطط الرباعى الاول (70 ـ 71) وتنتهى بنهاية سنة 1974 ٠ حيث عكف المسؤولون فى وزارة التعليم الابتدائى والثانوى على دراسة الوضعية التربوية لاول مرة فى اطار المخطط العام للتنمية ـ دراسة شاملة اسفرت فى النهاية عن اصدار مجموعة من القرارات متتالية تقضى :

1 ـ تعريب السنة الرابعة من التعليم الابتدائى ٠

2 ـ تعريب ثلث أقسام السنتى (الخامسة والسادسة) من التعليم الابتدائى ٠

3 ـ تعريب ثلث الاقسام المفتوحة فى السنة الاولى من التعليم المتوسط (الاعدادى) فى كامـل القطـر ٠

4 ـ تعريب ثلث الاقسام العلمية المفتوحة فى السنة الاولى من التعليم الثانوى فى كامـل القطـر ٠

5 ـ تعريب جميع الشعب الادبية المفتوحة فى بداية التعليم الثانوى ٠

6 ـ تعريب الجغرافيا فى المرحلة المتوسطة (تدريجيا) ٠

7 ـ تدعيم حصص اللغة العربية فى جميع المستويات وفى جميع أنواع التعليم ٠

8 ـ تعريب بعض الفروع من التعليم التقنى (المحاسبة ، التجارة ، السكرتارية) ٠

ان هذه الاجراءات قد مكنت من تعريب جيل مدرسى بكامله واستطاعت ان توسع حلقة التعريب وصارت المدرسة الجزائرية تقترب بفضلها من التعريب الشامل حيث جاء طبقا لاحصائيات سنة 1974 بان مجموع التلاميذ المعربين فى مختلف مراحـــل التعليم المذكورة قد بلغ 2.086،480 من المجموع العام البالغ : 2.749،740 ٠

أما عدد المعلمين المعربين فى الابتدائى فقد كان فى بداية الاستقلال حوالى 35000 معلم وارتفع هذا العدد فى سنة 1974 الى ما يقارب 38000 من مجموع المعلمين الذين بلغ عددهم سنة 1974 حوالى 54000 ٠

اما معلمو المواد المعربة فى المرحلة الثانوية فيقدر عددهم الآن بحوالى ستة آلاف من مجموع الاساتذة الذين بلغ عددهم سنة 1974 حوالى 14000 ٠

وهناك تطلعات جديدة فى اطار المخطط الرباعى الثانى (1974 ـ 1977) والمخططات التى تليه ، ترمى الى اصلاحات جذرية شاملة للنظام التعليمى ، تتمثل فى ازالة الحواجز المصطنعة بين ما يسمى بالتعليم التقنى وبين ما يسمى بالتعليم العام وانشاء مدرسة أساسية ذات تسع سنوات تكون مفتوحة للجميع يبدأ فى السنة السابعة ، منها تعليم متعدد التقنيات ، وقد تقرر ان تكون لغة التعليم بهذه المدرسة هى اللغة العربية فى جميع المواد ٠ كما تقرر فى هذا وضع سياسة واضحة لتعليم اللغة الاجنبية ٠

وفى التعليم العالى أخذت التجربة الجزائرية فى اصلاح التعليم طريقها الى الجامعة منذ سنة 1965 ، حيث أعلن الاخ هوارى بومدين رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الثورة بأنه قد آن الاوان لان تخلع الجماعة عنها الحجاب الذى يلفها ليرى الشعب بأكمله ما خلف هذا الحجاب ويقصد بذلك النظام الموروث عن الاستعمار والذى كان سائدا فى التعليم الجامعى ٠

ومنذ هذه الصيحة المباركة بدأت عملية التعريب تسرى فى كان الجامعـــات الجزائرية ، فأنشئت بها اقسام معربة فى الحقوق والآداب والتاريخ والجغرافيا والتربية وعلم النفس ، وكلية العلوم والمدرسة العليا للتجارة والمدرسة العليا للصحافـــة ،

وقد استعانت الدولة الجزائرية فى هذا باستعارة اساتذة من مختلف الاقطار العربية الشقيقة . وقد ساهم هؤلاء الاساتذة المعارون الى الجزائر من جامعاتهم بقسط كبير فى تعريب التعليم الجامعى بالجامعات الثلاث الكائنة بالجزائر العاصمة وقسنطينة ووهران. وطبقا لقرار مؤرخ فى 4 رجب سنة 1391 ، الموافق لـ 25 أغسطس سنة 1971 القاضى بضبط تدابير التعريب فى مؤسسات التعليم العالى . فان اللغة العربية تقرر ادراجها ابتداء من السنة الجامعية 1971 ـ 1972 فى جميع برامج الدروس العليا باللغات الاجنبية المقررة فى مؤسسات التعليم العالى والبحث العلمى للطلبة غير المعربين وحدد العدد الاجمالى (م 4) من ساعات الدروس والاعمال التطبيقية بثلاثمائة (300) ساعة فى كل سنة مقررة وعدم النجاح فى المستوى المطلوب لمعرفة اللغة العربية يحرم الطالب غير المعرب من تسلم شهادته الجامعية حتى ينجح فى مادة اللغة العربية . ولم يعف من هذا الا الطلبة الحاصلون على :

1 ـ دبلوم اللغة العربية من مستوى مساو على الاقل للشهادة الابتدائية .

2 ـ دبلوم لقسم مزدوج اللغة يشتمل على اختبار للغة العربية يساوى مستواه على الاقل مستوى أهلية التعليم العام .

هذا عن التعريب فى التعليم بصفة عامة . اما عن التعريب فى الادارة . فان تعليم اللغة العربية للموظفين أصبح اجباريا منذ صدور المرسوم المؤرخ فى أبريل سنة 1968 المتعلق بتطبيق الامر رقم 68 ـ 92 المؤرخ فى 26 أبريل سنة 1968 ، والقاضى باجبارية معرفة اللغة الوطنية على الموظفين لا سيما المادة الاولى منه والتى تنص فى الفقرة الاولى على : ان الدخول الى أية وظيفة دائمة فى ادارات الدولة والجماعات المحلية والمؤسسات والهيئات العمومية يتوقف على معرفة اللغة العربية ابتداء من أول يناير سنة 1971 .

كما تقرر انشاء مكاتب للترجمة الى اللغة العربية فى مختلف الوزارات طبقا لمرسوم صدر فى 8 فبراير سنة 1969 وقد نصت المادة الاولى منه على ما يلى : يحدث فى كل وزارة مكتب للترجمة ، يكلف بالترجمة الكتابية والشفوية الى اللغة العربية للوثائق والمراسلات والنصوص الرسمية ومشاريع النصوص ذات الصبغة التشريعية والتنظيمية .

اما تعريب القضاء هذا الميدان الذى كان وقفا على الفرنسيين المحتلين فقط ، والذى تغير وضعه منذ الاصلاحات التى دخلت على الجهاز القضائى سنة 1955 ودخلت حيز التطبيق ، سنة 1966 ، فانه قد أصبح معربا نهائيا بجميع اجهزته ابتداء من صدور المنشور الوزارى فى 2 ماى 1974 ، بعد التعريب الجزئى الذى كان مقصورا علـــى المناطق الجنوبية فقط ، وأصبحت جميع المرافعات وأعمال المحاكم بمختلف فروعها والاوراق الادارية والتوثيقية الصادرة من المصالح التابعة لوزارة العدل تجرى كلها بالعربية وتأكيدا لتعريب التشريع وتعزيز عملية التعريب فى ميدان القضاء صدر قرار رئاسى يقضى باستبدال جميع القوانين الصادرة فى العهد الاستعمارى بقوانين جزائرية فى أجل أقصاه 5 يوليو 1975 وقد كلفت بهـذا العمل لجنة وطنية باشراف الرئيس بومدين نفسه ، وينوبه فى العمل وزير العدل ·

ومن الجوانب التى لم تغفلها السلطة الثورية فى البلاد فى عملية التعريب ، مسألة الارقام العربية حيث صدر مرسوم فى 30 يونيو سنة 1971 ، يقضى ترسيم الارقام العربية الاصلية والعمل بها عوضا عن الارقام الهندية المعمول بها سابقا · كما اتخذت قرارات أخرى تقضى بتعريب اسماء الشوارع والمحلات التجارية ووسائل النقـــل والاختام التى تطبع بها الوثائق بصفة عامة فى الادارة والبنوك والشركات وغيرها ·

وفى النطاق الحزبى فقد كونت لجنة وطنية للتعريب باشراف قسم التوجيه والاعلام بحزب جبهة التحرير مهمتها القيام بدور التنشيط فى عملية التعريب على جميـــع المستويات · وقد سارت فى عملها وفقا لخطة علمية قائمة على الاحصاء والدراسة الواسعة للمشاكل القائمة فى وجه التعريب وحصر الوسائل البشرية والمادية لتطوير عملية التعريب فى البلاد ، الى جانب التنظيم الدقيق لهيئاتها وتوسيع نطاقها الى درجة انها استطاعت الآن ان تكون لها مجلسا استشاريا يتكون من عدد من الوزراء منهم وزير العدل والاعلام والشؤون الدينية والشباب والرياضة· وعدد من المستشارين فى الرئاسة وكبار الموظفين بمختلف أجهزة الدولة ، ولها برنامج جامع يشمل جميع المجالات الحيوية كالادارة والثقافة والاقتصاد وغيرها ·

ومما يزيد فى تدعيم قضية التعريب ان القرى النموذجية التى تبنى للفلاحين فى نطاق الثورة الزراعية ـ وعددها سيصل الى ألف قرية ـ لم يكتب عليها حرف واحد باللغة الفرنسية لا فى الشوارع ولا فى المصالح الادارية والمرافق العامة ولا فى المحلات التجارية ٠

ان هذا العمل الكبير فى نطاق المحاولة الجزائرية للتعريب يعد دليلا صادقا على جدية الاتجاه الثورى العربى الذى تبنته السلطة الثورية بقيادة الاخ هوارى بومدين ، وعلى ارادة العمل المخلص من أجل ارساء قواعد السيادة الوطنية من خلال استرجاع الذاتية العربية للبلاد والقضاء على الحواجز التى أقامها الاستعمار الفرنسى بين الشعب الجزائرى وبين أشقائه العرب طيلة مائة وثلاثين سنة.

أخلاق الاوروبيين وخصائص شعوبهم

د. علي عيسى
أستاذ علم الاجتماع
- جامعة الجزائر -



مما تحتمه الظروف والاوضاع الحاضرة في البلاد العربية ونحن نواجه الدول الاوروبية مواجهة مباشرة ونتعامل معها رأسا بحكم كوننا مستقلين ، على المستويات السياسية والاقتصادية وغيرها من المستويات ، أن نكون على علم بأخلاق شعوب هذه الدول وخصائصها القومية . وتحت أيدي علم الاجتماع دراسات تتعلق بهذا الموضوع قام بها العلماء الاوروبيون عن شعوب القارة الاوروبية ذات التأثير في سياسات العالم للافادة منها في الحروب والتفاوض وكل ضروب التعامل . قد يكون من المفيد أن يعرفها العرب للاغراض العملية . ولو انها في الاصل كان المقصود بها أن يعرف الاوروبيون أنفسهم .

ومن المهم أن نفطن الى أن الاوروبيين وغيرهم يستعدون دائما لمواجهة العرب بدراسة أخلاقهم وأمزجتهم وميولهم مسبقا • واننا نحن العرب مازلنا مقصرين فى اجراء الدراسات عليهم لنسبر أغوارهم ونعرف ما يكمن وراء كل كلمة يقولونها أو كل حرف يخطونه •

ويلاحظ أولا وقبل كل شيء ان اهتمام الدول القومية بهذا الامر كان موجها الى البحث عن شخصيات الدول الاخرى التى تقوم معها منافسات سياسية أو عسكرية أو اقتصادية • فمنذ بداية القرن التاسع عشر اهتم الالمان بدراسة الخصائص القومية الانجليزية فيما يرى بروفسور جنزبرج أستاذ علم الاجتماع فى جامعة لندن فى خطابه الافتتاحى أمام جمعية علم النفس البريطانية فى أفريل عام 1941 بمناسبة انشاء شعبة علم النفس الاجتماعى فى هذه الجمعية • ومما جاء فى الخطاب المشار اليه ان الكتاب الالمان الاوائل وجدوا فى النمو العضوى البطىءلانجلترا وفى استقلالها القائم على أسس مثبتة نموذجا يحتذى فى الصراع الالمانى من أجل اعادة بناء ألمانيا • كما أرجعوا الاخلاق الانجليزية الى أصل عنصرى جرمانى قديم من شمالى أوروبا • واتجه الكتاب الالمان آخر الامر الى تحديد الاخلاق الانجليزية بالمادية المعنة والسعى الحثيث الى القوة والربح ، والمهارة فى اخفاء الميول الانانية تحت معطف من حب الانسانية على أساس أخلاقى ودينى • وقد تعرضت هذه الاوصاف للتحليل وكثرة الترديد خلال الحرب العالمية الاولى بين عامى 1914 ـ 1918 التى واجه الالمان والانجليز أثناءها كل منهم الآخر • ومما ورد فى كتابات الالمان عن الانجليز فى هذه الفترة ونخص من الذين كتبوا « ليفين شونكج » ، ان التظاهر بغير ما يجول فى النفس صفة عميقة الجذور فى الخلق الانجليزى • وكذلك « ديبليوس » الذى ذكر فى كتابه عن انجلترا عام 1930 أن الانجليز يتميزون بالعقل والحكمة والرجولة والتوازن النفسى وان لم يخلوا من شغف بالقوة •

وتقابل هذه الدراسة دراسات أخرى عن خصائص الالمان قام بها باحثون فرنسيون • وها هو « فوييه » الفرنسى الذى يرى ان الصفات الطيبة لشعب من الشعوب كثيرا ما تكون مستترة • وان الذى يظهر على السطح منها لا يعدو أنْ يكون الصفات السيئة

والحماقات ٠ ومما ذكره عن الالمان أنهم متزنون وميالون الى العدل ولكنهم « عسكريو التفكير » ومغالون أشد المغالاة فى حب وطنهم ٠ وهذه جميعا اتجاهات تهتم بمعرفة الامزجة ٠

وهناك اتجاه نجده عند علماء النفس الاجتماعى وأهمهم « مكدوجل » الذى يرى ان الشعوب تتفاوت خصائصها القومية تبعا لدرجة حدة الغرائز عند أفرادها ٠ فهناك غريزة حب الاجتماع مع الآخرين وغريزة توكيد الشخصية وغريزة الخضوع وحب الانطواء أو الانطلاق ٠

ومن الباحثين من يقيم الفروق بين الشعوب على أساس جماعى أو نمطى ينطبق على جميع أفراد المجتمع انطباقا تاما وشاملا ٠ مثل دراسة « دو ما درياجا » عن الانجليز والفرنسيين والاسبان عام 1928 ، تلك الدراسة التى قال فيها ان الانجليز رجال عمل والفرنسيين رجال فكر والاسبان رجال عواطف جياشة ٠ ويبدو أن أكثر الدراسات التى أجريت على الخصائص القومية وشخصية المجتمع تتعلق بالانجليز ، وذلك لما فى أخلاقهم وسلوكهم مما يدعو الى التأمل والدراسة ويلى ذلك الدراسات المتصلة بالفرنسيين أو بالمقارنة بين الانجليز والفرنسيين ٠ ولهذا يجدر بنا أن نركز قليلا على هؤلاء ٠ فهناك اجماع على أن الانجليز يميلون الى التجريب المادى ولا يتمسكون بالنظريات لذاتها ، وانهم يتمسكون بالفردية ـ وبصرف النظر عما ورد فى كتابات الفلاسفة الانجليز عن التجريب والمذهب التجريبى فى بريطانيا فأن عادة الاتجاه التجريبى فى التفكير شائعة فى كل نواحى الحياة عند الانجليز ـ فالسياسة الانجليزية والقانون الانجليزى مبنيان كلاهما على أساس تجريبى ٠ بمعنى ان كلا منهما يعالج مسائل محدودة بالذات عند وقوعها ولا قبل وقوعها ٠ ويمتنع الانجليز عن وضع مبادىء عامة فى أى أمر من الامور ويفضلون الحلول الجزئية شيئا فشيئا ٠ فاذا أرادوا مثلا سن قانون ما فانهم يبحثون فى ضوء الحاجة المحدودة والعملية لهذا القانون ٠ لكنهم لا يبحثونه أبدا فى ضوء متطلبات النظرية العامة للقانون وأمامنا مثال حى وملموس فى تصرفات بريطانيا فيما يتعلق بالازمة الايرلندية بين الكاثوليك والبروتستانت وبين ايرلندا الشمالية وحكومة لندن فى السنوات الاخيرة ٠

ولنبحث اثر هذه العقلية الانجليزية ودورها فى السياسة الدولية : نلاحظ هنا أن القرارات الانجليزية تتسم بأنها محاولات متئدة حذرة تهدف الى حل جزء من المشكلة فاذا تم ذلك اتجهت الى حل جزء آخر وهكذا · وتتجنب هذه العقلية التحديد القانونى الدقيق كما انها لا تثق بما يسمى الحلول النهائية أو التخطيط بعيد المدى · ومن رأى بعض المفكرين الفرنسيين ان هذه الصفات الانجليزية هى العقبة الكؤود فى سبيل أى تعاون فرنسى انجليزى · وفى مقابل هذه العادة الانجليزية فى التفكير التى تفضل أن تحصر نفسها دائما فى الشىء المباشر والمتعين بالذات أمامها ، نجد العقلية الفرنسية تتجه دائما الى العام لا الى الخاص · وتتوق الى الحلول النهائية الواضحة المعالم والتى لا تقبل أى تأويل والمتوافقة منطقيا من جميع الوجوه ·

والصعوبة الكبرى التى تعترض الباحثين فى شخصية أمة من الامم أو فى خصائصها القومية منشأها تنوع الجماعات القومية داخل المجتمع الواحد وافتقار بعضها الى التجانس فيما بينها · فأجزاء كل أمة متعددة · ومهما قيل عن تجانس الانجليز مثلا فان تقسيمات بريطانيا الاقليمية الى انجلترا ، اسكتلندا ، ويلز ، ايرلندا تجعل كثيرا من الفروق فى التفكير واضحة بين السكان · وكذلك نفس الظاهرة عند الفرنسيين فالبيكاردى يختلف عن الفاسكون والنورماندى يختلف عن السافويار · ومحاولات التوحيد بين الجماعات الاقليمية هى الشغل الشاغل للدول الاوروبية · الا اذا كان الامر يتعلق بالمستعمرات الاوروبية حيث نجد المستعمرين يعمقون هوة الاختلاف بين الجماعات واقسام المجتمع فى البلاد التى يستعمرونها ·

ولا يخفف من حدة الفروق الاقليمية فى المجتمع الواحد الا وسائل المواصلات الحديثة السريعة التى تربط بين الاجزاء مع العناية الخاصة بتوحيد اللغة المسموعة فى الاذاعة ولهجة النطق بها وذلك عن طريق معاهد اللسانيات وخلق علاقات ثقافية واقتصادية تأسيسية أى لا غنى عنها بين أجزاء الوطن الواحد والقضاء عن طريق التعليم والتربية القومية على ما قد يوجد من فروق بين السكان ·

وأهم الآراء فى موضوع الشخصية العامة للامة أو عقليتها أو خصائصها ما ذهب اليه « س · ف· ستاوت » فى كتابه : علم النفس الاجتماعى ويتلخص فى أن هذه

الشخصية أو العقلية أو الخصائص لا تظهر واضحة المعالم تماما الا فى حالة وحدة الامة واستمرار حياتها الواعية وهى أمور تؤدى بالضرورة الى سلوك متوافق بين الافراد ·

ونحن نخطىء خطأ كبيرا اذا تحدثنا عن الخصائص القومية لامة ما دون أن ندخل فى الاعتبار ثلاث مسائل :

أولا ـ امكان تجمع أفرادها بانتظام مهما كان عدد سكانها فقد يكون عدد السكان كبيرا ولكن فرص التجمع قليلة عندهم ·

ثانيا ـ البيئة الجغرافية · فكون أمة من الامم تعيش فى جزيرة أو مجموعة جزر مثل الجزر البريطانية يختلف عن العيش فى صحراء أو فى صحراء تتخللها المدن أو فى اقليم مزدحم بالسكان · فلابد أن تخلق الظروف البيئية اخلاقا وصفات معينة · فكثيرا ما يوصف البريطانيون بأنهم سكان جزر وأن كونهم محاطين بالبحر جعلهم يتهيبون الغريب ويتقنون علوم البحر ·

ثالثا ـ تاريخ الامة · وهو فى نظرنا أهم مقومات الشخصية لاية أمة · فمن هذا التاريخ الذى تحفظه كل أمة كأسمى مدخراتها الحضارية ، سواء فى صدور أبنائها أو فى بطون الكتب ويتناقله المواطنون من جيل ويروون أخبار بلادهم ووقائعهم التاريخية واحداثهم عن مقاومة المعتدين وما صاحب كل ذلك من تقاليد وصفات نضالية من كل أولئك تتأصل صفات الشعب وتقوى أصالتها مع مرور الزمن · ولذلك يكون الالمام بتاريخ الامة عملا ضروريا لمعرفة الخصائص القومية لابنائها ·

ولما كان تاريخ أمة خاصا بها ويختلف عن تاريخ أية أمة أخرى فالنتيجة المنطقية لهذا الاختلاف هى اختلاف أخلاق الشعوب وصفات أفرادها ·

وكثيرا ما يصعب علينا تفسير صفة من صفات أمة ما لاننا لم نحط تماما بكل مقومات بيئتها وثقافتها وكل أحداث تاريخها · وفى وسعنا أن نربط سلوك الشعب فيما يتعلق بعادات الطعام وما يفضله من صنوفه بظروف البيئة ومنتجاتها وما يسهل

استيراده من هذا الطعام وكذلك يمكن أن نربط بين موقف أى شعب من الاجانب بكثرة ما عاناه منهم فى تاريخه القديم ·

ولابد لنا أن نطرح جانبا الفكرة القائلة بأن هناك خصائص محتومة لا مفر منها على الشرقيين أو الغربيين أو على الاوروبيين أو الافريقيين ، لا سبيل الى تغييرها · وهذا البحث اختلط بآراء باطلة قصد من ورائها استغلال شعوبنا العربية والافريقية · فالقول مثلا بأن الشعوب الافريقية ترفض التقدم ولا تعرف ماعندها من خيرات وان من حق الاوروبى أن يستعمرها ليخدم أهلها ويرقى بهم الى ما لم يستطيعوا تحقيقه من تقدم ، هذا القول يخفى وراءه الميول الاستعمارية ويمنح الاوروبى أو المستعمر حقوقا ليست له · وفى التاريخ المعاصر للشعوب الشرقية والإفريقية ما يثبت انها جادة وقادرة على النهوض وملاحقة الحضارة لو تركت حرة التصرف فى شؤونها الخاصة · ويطول بنا المقام لو أردنا أن نذكر هؤلاء المفكرين الاوروبيين المنحرفين الذين خططوا للمستعمرين فى الماضى وقدموا اليهم التبرير العقلى لانقضاضهم على الشعوب المستضعفة · ويكفى أن توالى الاحداث فى القرن العشرين تثبت ان كل فلسفاتهم باطلة وان الشعوب التى تخلصت من نير الاستعباد والتبعية تقف الآن على أرض صلبة لتعلن للعالم خصائصها الحقيقية ·

وأود قبل أن أختم هذا المقال أن أوجه الانظار الى ضرورة أن يدرس العرب الاوروبيين ولو اقتضى هذا العمل زمنا طويلا فقد أشبعونا دراسات أطلقوا عليها مرة « الاستشراق » ومرة أخرى البحث من أجل البحث !! وكان من نتائجها انهم فهمونا دون أن نفهمهم وكفانا أن نذهب الى أوروبا للتخصص فى اللغة العربية وفقهها أو فى شعر الفرزدق أو الدين الاسلامى · ان علينا أن نهجم على دراسة فلاسفة أوروبا وفلاحيها وعمالهم لنعرف ماخفى من خصائصهم القومية بدلا من أن نزيد من حصيلتهم عن خصائصنا ·

الحـــلاج والقرامطـــة وماسينيـــون (1)

المرحوم د. محمود قاسم
عميد كلية العلـــوم
جامعة القاهرة سابقا

حـــاول لـــويس ماسينيون أن يصـــور لنـــا الحـــلاج نموذجا لمأساة التصوف فى الاسلام . وذلك أنه اعتقد أن الحلاج جاء يبشر بدين المحبة أو بحكـــم اللـــــه فى القلوب ، فضحى بحياته حتى يدعو الناس الى السمـــو عـــن حرفية الشـــرع وقشـــوره التى حجبت عنهم لبـــه وجوهره . غير ان ماسينيون يؤكد لنا ان الحـــلاج اعتمد فى تصوفه على بعض العناصر الاسلامية كهبوط آدم واسراء الرســـول ، وهو يـــرى ان هذين العنصرين كان لهما أثرهما العميق فى بنـــاء نظريته الصوفية التى يعرضها فى بعض فصـــول كتاب الطواسين ، أي فى طاسين الازل ، وفى آخر فصل فى هذا الكتاب وهو « بستان المعرفة » حيث يجعل العرفان أرقى مرتبة للسمو الروحى ، ابتداء من أول مرتبة فيه وهي طـــاسين الســـراج ايمـــاء الى الشـــريعة المحمدية . لكـــن نـــلاحظ أن ماسينيون يعترف ضمنا باثر الفكر اليونانى والفكر الفارسى فى العصر الذى عاش فيه الحلاج ،

1) كان المرحوم قد أرسل الينا مجموعة من الدراسات القيمة قبل وفاته بايام قليلة ، سنشرع ابتداء من هذا العدد فى نشرها .

وان لم يكشف بوضوح عن تلك العناصر اليونانية والفارسية التى امتزجت فى المذهب الصوفى للحلاج مع أنها هي العناصر الجوهرية التى يـدور حولها مذهبه · فعلينا اذن أن نبـرز هذه العناصر التى نجـدها فى كتابات ماسينيون وفى كتابات غيره عـن الحلاج ممن كانوا اقرب الى العصر الذى عاش فيه هذا الرجل · غير أنه ينبغى ، قبل ذلك أن نبين انه كان أشد الناس تأثرا بفلسفة القرامطة وهي فلسفة باطنية فى جوهرها.

ولا بأس من أن نشير اشارة موجزة الى تاريخ حياة هذا الرجل بناء على ما نقـل الينا رواية عـن ابنـه وعن الآخرين الذين ترجموا لـه · لقد ولد الحسن بن منصور الحلاج فى البيضاء سنة 244 هـ ، ثم أقام فى واسط التى تقع بين بغداد والبصرة · فلما قامت ثورة الزنج ترك واسط فى سنة 260 هـ وذهب الى الاهواز لكي يتتلمذ على سهل بن عبد الله التستوى مدة سنتين · ثم سار الى بغداد على قدميه وهو فى الثامنة عشرة من عمره مارا بالبصرة ، أي فى الوقت الذى كانت ثـورة الزنـج تجتاح هذه المنطقة · وفى بغداد لقي بعض الصوفية ، كعمرو بن عثمان المكي والجنيد ، ثم تزوج بابنة أبى يعقوب الاقطع · وقد زار الجنيد بن محمد عدة مرات · ثم سافر الى مكـة فأقام بها سنة · وعندما رجع الى بغداد عاد ومعه جماعة قال انهم من فقراء الصوفية . ويقال انه ذهب الى الجنيد ووجه اليه سؤالا لم يجبه الجنيد عليه · ولهذا السـؤال مغزاه لانه يرتبط ارتباطا شديدا بمذهبه الصوفى وهو : « ما الذى يصد الخلق عـن رسوم الطبيعة » · ويمكن فهم ماذا كان يعنيه الحلاج بسؤاله هذا على ضوء التأثير المزدكى والدعوة الى تأويل العبارات على طريقة القرامطة بأنها مجرد قواعد تنظيمية للحياة الاجتماعية ورموز يمكن تأويلها · كذلك « روى أن الحلاج مر يوما على الجنيد فقال له : أنا الحق · فقال له الجنيد : أنت بالحق · أية خشبة تلسد ؟ فتحقق فيه مـا قال الجنيد انه صلب بعد ذلك » (1) · ويميـل ماسينيون الى ان الحـلاج اختلف مـع صوفى آخر ، وهو عمرو بن عثمان المكي بسبب زواجه من ابنـة أبى يعقوب الاقطع ، فكان ذلك سبب القطيعة بينهما · لكن صاحب كتاب الفرق بين الفرق يرى رأيـا آخر ، وهو أن ابن عثمان المكي انما تبرأ من الحلاج لانه كان يقول : « يمكننى أن أقول مثـل القرآن » (2) ، وكان الحلاج يعنى ما يقول ، فقد ألف كتابه « الطواسين » يعارض بـه القرآن · وهذا هو ما أشار اليه محيى الدين بن عربى فيما بعد ، أكثر من مرة فى كتابه « الفتـوحات المكيـة » ·

(1) الفرق بين الفرق للبغدادى ص 262 .
(2) المصدر السابق نفس الصفحة .

ويرى ماسينيون ان الحلاج غضب من صوفية بغداد ، فأخذ زوجته ، ورحل بها الى تستر وأقام بها نحوا من عامين ، فأعجب به الناس اعجابا شديدا دعا الى اثارة حنق الصوفية المعاصرين له ، فأرسل عمرو بن عثمان الى صوفية « تستر » كتابه يجرحه فيه · فترك الحلاج لباس الصوفية وعقد روابط الصداقة بالعامة · ويقول أحمد بن الحلاج ان أباه تركه هو وأمه خمس سنوات ، وكان ذلك فى الوقت الذى بدأ فيه القرامطة نشاطهم الحربى ، فذهب الى خراسان وما وراء نهر جيحون ، ودخل الى سجستان وكرمان ، ثم عاد يعظ الناس ويدعوهم الى الله ، ونلاحظ أن هذه الدعوة تقترن بتاريخ الثورة الكبرى التى قام بها القرامطة فى 290 هـ ويضيف ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » أنه ثبت ان الحلاج دخل الهند وتعلم بها السحر » وقال : أدعو به الى الله ، وكان أهل الهند يكاتبونه بالغيث ، ويكاتبه أهل خراسان بالميز ، وأهل فارس بأبى عبد الله الزاهد ، وأهل خورستان بأبى عبد الله الزاهد حلاج الاسرار ، وكان بعض البغاددة ، حين كان عندهم ، يقولون له : المصطلم ، وأهل البصرة يقولون : المحير ··· وقد كان الحلاج يتلون فى ملابسه ، فتارة يلبس لباس الصوفية ، وتارة يتجرد فى ملابس زرية ، وتارة يلبس لباس الاجناد ، ويعاشر أبناء الاغنياء والملوك » (3) كذلك وصفه ابن الجوزى فيما بعد فقال : « كان الحلاج متلونا تارة يلبس المسوح ، وتارة يلبس الدراعة ، وتارة يلبس القباء ، وهو مع كل قوم على مذهبهم ، ان كانوا أهل سنة أو رافضة أو معتزلة أو صوفية أو فساقا أو غيرهم ولنا أن نضيف أن مسلك الحلاج فى تغيير اسمه ومهنته ومعتقده يتسق مع ما درج عليه دعاة الباطنية من القرامطة والاسماعيلية من تغيير أسمائهم ومعتقداتهم ظاهريا باختلاف المناطق التى يرتادونها تمهيدا لظهور صاحب الزمان أي صاحب دولة الفاطميين ، ثم لظهور صاحب القيامة الكبرى ، وتتلخص تلك القيامة الكبرى فى نسخ الشرائع وادعاء الالوهية ، بعد استقرار هذه الدولة ·

ثم قصد الحلاج مكة للمرة الثالثة وجاور سنتين وادى فريضة الحج فى سنة 295 هـ ، ويقال انه قلد الرسول فخطب خطبة الوداع على جبل عرفات فى تلك السنة (4) ولما غاد الى بغداد عاد متغيرا عما كان عليه من قبل كما يقول ابنه أحمد · ويفسر ماسينيون هذا التغير بأن الحلاج وصل الى مرحلة « عين الجمع » ، وهي المرحلة

(3) البداية والنهاية جـ 11 ص 133 .
(4) ماسينيون المصدر السابق ص 116 .

التى يستحوذ فيها الصوفى على الذات الالهية فى أعماق نفسه دون أن تنمحى شخصيته وافعاله الارادية · وتلك مرحلة أسمى من مرحلة العبادة الشرعية والوجد الصوفى (5) · أما ابن الحلاج فيقول عن أبيه انه اشترى عمارة فى بغداد وبنى لنفسه منزلا وأخذ يعظ الناس بمذهب كان لا يعرف عنه الا قليلا · واستقر الحلاج فى حي التستريين على الشاطىء الايمن لدجلة حيث كان يسكن أتباعه من أعيان الاهواز الذين أقنعهم بالمجىء الى بغداد منذ سنوات ، ثم استطاع أن يستميل اليه قائدين وكثيرا من العامة وأدعى الالوهية فقال بعضهم انه مجنون وقال آخرون بل له معجزات · ولنا أن نتساءل فنقول وما مصدر هذا الثراء المفاجىء ؟ فهل سلك الحلاج مسلك صاحب الزنج فى جمع هذا المال ، أو اتبع منهج شيخ القرامطة مع المنتمين الى المذهب ، أم كان هذا المال يأتى عن طريق الاحتيال على البسطاء بأساليب السحر التى تعلمها فى الهند ؟ فقد قيل ان الحلاج كان يستخرج الدنانير من الارض وكان يجدها تحت وسادته أو يقبضها بيده من الهواء ، وكانت دائما دنانير من تلك التى يتداولها الناس فى عصره · لكن بعض معجزات الحلاج أو كراماته أو حيله ربما أرشدتنا الى بعض مصادر ثروته · وهنا سنعتمد على ما يرميه لنا « لويس ماسينيون » ، فقد أخبرنا أن جماعة من الصوفية زاروه ، فذهب بهم الى معبد مزدكى ، فطلب مفتاح المعبد فلم يجده ، فمر بكمه أمام القفل فانفتح الباب ، فدخل هو وأصحابه ، فوجدوا شمعة موقدة · فقال لهم حارس المعبد ان هذه الشمعة لا تنطفىء لا ليلا ولا نهارا ، وقد أوقدها ابراهيم ولن يطفئها سوى عيسى بن مريم · فمر الحلاج بكمه أمام لهب الشمعة فانطفأت ، وظن الحارس أن تلك هي علامة الساعة فجعل يبكى أمام الحلاج فقال له : اذا أعطيت شيئا لهؤلاء المشايخ أوقدتها لك · فأخرج الحارس صندوق النذور فأخذه الشيوخ ومد الحلاج كمه فاشتعلت الشمعة (6) · كذلك روى لنا ابن الازرق ، عن كثير من الشهود من بين أصدقائه ، قصة رجل اتفق مع الحلاج على الاحتيال · ذلك أن هذا الصوفى أرسل أحد أصدقائه الى قرية من قرى الجبل ، فتظاهر ، على عادة الباطنية ، بالعبادة والتقوى وترتيل القرآن حتى اطمأن اليه أهل القرية · ثم ادعى أنه فقد بصره · فأخذ بعض أهل القرية يقوده الى الجامع كل يوم · ولما مضت سنة آمن الناس جميعا أنه فقد بصره دون رجعة · فخرج عليهم يوما يقول انه رأى الرسول فى

(5) المصدر السابق ص 117 .
(6) المصدر السابق ص 91 .

المنام فأخبره أن رجلا صالحا سيمر بالقرية ، وأنه سيمسح على عينيه فيعيد اليه البصر . فظل أهل القرية يترقبون هذا الرجل الصالح ، فجاء الحلاج فتوسلوا اليه أن يمسح على عينى صاحبهم حتى يسترد بصره . فنزل على رغبتهم بعد كثير من التمنع ، وشفى الرجل ، وتجمهر الناس حول الحلاج فصرفهم عنه وغادر القرية . أما مدعى العمى فقال لاهل القرية بعد قليل انه سيذهب الى الخلوة والعزلة شكرا لله الذى رد عليه بصره . لكنه سيعود . فاذا أراد أحدهم شراء شىء من المدينة فسيحضره له ، عند عودته . ويقول ابن الازرق ان هذا الشيخ المحتال حصل على آلاف من الدنانير اقتسمها مع الحلاج فيما بعد .

لكن لنترك هذا القصص عن كرامات الحلاج أو حيله ، فان وقتنا لا يتسع لسرده . ولنعد الى حديث ابنه الذى يقول : انه قامت بين أبيه وبين جماعة من الصوفية مناظرات ومجادلات ، وقام بمعجزات وكان يجاب دعاؤه فاختلف الناس فى أمره ، فحبسه السلطان فاقام سنة فى السجن يزوره الناس . ثم منعت زيارته خمسة أشهر زاره فيها رجلان خلسة ، وهما أبو العباس بن عطاء وأبو عبد الله بن خفيف . ولما جاءت الليلة التى سيخرج فيها من زنزانته عند الفجر لتنفيذ الحكم فيه صلى ركعتين . وبعد أن فرغ منهما لم يفتأ يكرر : مكر ! مكر ! حتى قضى شطرا كبيرا من الليل . وبعد أن سكت طويلا صاح : حق ! حق ! ثم اتجه الى القبلة وجذب ، وتكلم مع الله . ثم يستمر ابن الحلاج ،يصف هذه اللحظات الاخيرة ، فيقول وكان معى ابراهيم بن فاتك وحفظنا بعض كلامه « فكان من مناجاته : نحن شواهدك نلوذ بسنا عزتك لتبدى ما شئت من شانك ومشيئتك وأنت الذى فى السماء اله وفى الارض اله ... يا من تجلى لما شاء كما شاء كيف شاء ، مثل التجلى لاحسن الصورة ، والصورة هي الروح الناطقة التى أفردته بالعلم والبيان والقدرة ثم أو عزت الى شاهدك فى ذاتك الهوى اليسير لما أردت بدايتى » ويتضمن هذا الكلام القول بوحدة الوجود .

وقد روى عن الشبلى أنه قال : كنت أنا والحلاج على فكرة واحدة ، فأنقذنى جنونى وفقد عقله . وهذا ما يمكن تفسيره على ضوء ما قاله أبو منصر اليمانى عندما مر به وهو مصلوب : « علمت كما علمنا وبحت وكتمنا ، فصلبت ونجونا » .

فما الذى كان ينبغى للحلاج أن يخفيه حتى ينجو ؟ ان من يدرس مذهب الحلاج فى كتابه الطواسين وفى ديوان شعره وفى رسائله يفاجأ بكثرة ما يحتوى عليه هذا

المذهب وتلك الكتابات من معتقدات نجدها عند القرامطة والباطنية الاسماعيلية بصفة عامة · وقد اعترف « ماسينيون » بأن الحلاج لما غادر بغداد وأخذ ينشــر دعوته فى الاهواز كان يعتمد فى وعظه على مجموعة من الرموز التى أخذها من القرآن كالقــلم واللوح المحفوظ والسماء والطارق والنجم الثاقب وهي الرموز التى كان يستشهد بها دعاة القرامطة ممن كانوا يجوبون فى هذا الاقليم (7) · فيستشهدون فى وعــظ مــن يريدون ادخالهم فى مذهبهم بالآيات الظاهرة فى المخلوقات على أنها أدلة تشهد بصدق هذا المذهب · كذلك اشار الى أن الحلاج يشبه القرامطة فى أنه كان يدعو مثلهم الــى دين عالمى ، لكن « ماسينيون » يريد أن يبرىء الحلاج من أن يكون قد ساهم بصورة ما فى حركة القرامطة التى كانت ، على حد قوله ، حركة تمرد ضد النظام باسم العدالة ، وشبيهة بحركة الخوارج الاول ، وان نادى القرامطة بامام علــوى هــو المهدى الذى انتشرت الدعوة الباطنية له فى أماكن عدة من العالم الاسلامى كالبحرين والاهــواز والاحساء واليمن ومصر والمغرب ، وهي الدعوة التى تشيــع لها كثير مــن الفلاسفة كاخوان الصفا والطبيب الرازى وبعض رجال الدولة ·

غير أننا نجده يتساءل بعد ذلك كله فيقول : هل حاول القرامطة ضم الحــــلاج اليهم · ويتظاهر بالموضوعية فيقرر أن هناك ما يدعو الى قبول هذا الاحتمال ، بنــاء على تماثل الرموز والاستعارات التى استعملها كل من القرامطة والحلاج فى استمالة العامة · لكنه لا يلبث أن يشكك فى الصلة بين الحلاج والقرامطة بدعوى أن الحلاج كان يعتقد أن العبادات الشرعية هــي السبيل الى تحقيق الاتحاد الصوفى بالــذات الالهية . فى حين أن القرامطة يرون أن هذه العبادات ليست سوى رموز لقواعد ترمى الى تحقيق غايات اجتماعية · لكننا نميل الى رأي مخالف لاننا سنرى « ما سينيون » يؤكد فى موطن آخر أن الحلاج قال باسقاط شعائر الاســلام ، وعلى رأسها فريضــة الحـــج ، هــذا الــى أن الدعـــوة واحــدة والهــدف واحــد عنــده وعندهــم مــن النــاحيتــين الدينيـــة والسياسيــة · فليــس الاتحـــاد الصــوفى عنــد الحـــلاج الا تاليها عند البشر · وقد وجد من آله خلفاء الفاطميين · وهذا هــو مــا روج لــه اخوان الصفــا فى رسائلهم ومــا أعلنته الاسماعيلية الشرقية فيما بعد عندما جــاء صاحب القيامة الكبرى وادعى الربوبية وقال بنسخ الشرائع ·

(7) ماسينيون ـ نفس المصدر ص 66 .

لقد ادعى الحلاج أنه بلغ مرتبة الكمال بعد عزلته الصوفية فى مكة فأصبح الاله الذى دخل فى نطاق الزمن وتجلى فى صورة الحلاج ، كما تجلى من قبل فى عيسى ، وفى هؤلاء الذين أدعوا الربوبية لانفسهم من أمثال ابن أبى الفوارس وغيره ، فأصبح الحلاج ، على حد زعمه ، « الشاهد الآنى » للذات الالهية · وقد حكى عن الحلاج أنه قال : « من هذب نفسه فى الطاعة ، وصبر على اللذات والشهوات ، ارتقى الى مقام المقربين ، ثم لا يزال يصفو ويرتقى فى درجة المصافاة ، حتى يصفو عن البشرية · فاذا لم يبق فيه من البشرية حظ **حل فيه** روح الاله الذى حل فى عيسى بن مريم ، ولم يرد حينئذ شيئا الا كان كما أراد ، وكان جميع فعله فعل الله · زعموا أن الحلاج ادعى لنفسه هذه الرتبة (8) · ويفسر لنا هذا الزعم سبب الخلاف بينه وبين الامامية فقد قالوا عنه انه اغتصب لنفسه حق الدعوة ، كما حاول الاسماعيلية اغتصابها من الامامية الاثنا عشرية ، وانه ادعى لنفسه حق تقرير قواعد العبادة وهي من حق الامام ، ثم انتهى بأن ادعى الربوبية التى هي لله وحده ، والتى لم يعهد بها حتى الى انبيائه (9) ·

وبعد ذلك كله ، يؤكد لنا « ماسينيون » ، دون دليل ، أن الحلاج لم يكن قرمطيا ولم يكن مبتدعا دينيا ، بل كان متصوفا سنيا ، يجمع بين القواعد التقليدية للعبادة وبين التجارب الصوفية الذاتية ، ويؤمن بأن عيسى هو خاتم الاولياء ، وأنه سيتجلى أمام البشر جميعا باسم الملك الازلى · فليس المسيح اذن سوى تجسد زمنى لنور الذات الالهية · غير أن « ماسينيون » يسلم بأن الحلاج كان على صلة وثيقة بالفكر اليونانى وبالزنادقة وبالقرامطة ، فقد اطلع على ترجمة التراث الفلسفى اليونانى واتصل بسنى مطعون فيه بالزندقة وهو الطبيب الرازى ، كما كان على صلة بأبى سعيد الجنابى الكبير وبكبار الدولة السامانية وبأمير الطالقان · وتفسير « ماسينيون » لصلة الحلاج بالقرامطة تفسير طريف يستحق أن يكون موضوعا للتأمل · ذلك أنه يقول ان الحلاج كان يريد أن يضمهم الى الصوفية ، كما حاول ذلك فيما بعد مع ابن حمدان ونصر القشورى وهما من كبار رجال الجيش فى دولة الخليفة العباسى (10) وما نظن ، حسب فهمنا نحن ، أن القرامطة كانوا فى حاجة الى ما يدعوهم الحلاج اليه ، اذ كان لهم عمل

(8) الفرق بين الفرق للبغدادى وانظر الطواسين ص 133 – 134 ·
(9) ماسينيون نفس المصدر ص 115 ·
(10) نفس المصدر ص 74 ·

آخر يعرفه الحلاج جيدا · وقد سبق أن أقسم بالسنة التى سيبلغ فيها هذا العمل أوجه من العنف · وهي سنة 290 هـ · ومن جانب آخر فان بعض رؤساء القرامطة ادعوا لانفسهم الربوبية كما ادعاها الحلاج لنفسه · فكيف يفكر فى ضمهم اليه اذا كانوا على مذهبه ؟

أما اتصاله بكبار رجال الدولة وبأمراء الجيش فيمكن تفسيره تفسيرا يتسق مع طبيعة تلك الفترة التاريخية الحاسمة التى كانت تتمخض عن دويلات جديدة فى المشرق تساند دولة الفاطميين فى المغرب ، وهي فترة تحتاج الى الاعوان من داخل الحصن المحاصر أو الى ما يسمونه « الطابور الخامس » · ففى مثل تلك الفترة يجند دعاة الدولة الجديدة كل رجل يمكن أن يفيدوا منه من الدولة القديمة · وهذا هو ما يعترف به « ماسينيون » عندما يحدثنا عن أسلوب الحلاج فى تجنيد بعض رجال الخليفة المقتدر كمحمد القنائى وأخيه فيقول : « لقد كان منهجه فى الدعوة بسيطا وجريئا فى محاولة ضم مختلف الرجال من مختلف الاتجاهات الى مذهبه ، مستخدما مع كل منهم مصطلحاته ، وهو المنهج الذى وصفه خصومه بأنه ضرب من الخديعة ، لانه كان ينتسب الى الاعتزال اذا قصد مدينة تدين بالاعتزال · أما اذا كانت من الامامية فانه ينتسب الى الامامية · « وليس هذا المنهج البسيط الجرىء الا منهج دعاة الاسماعيلية فى ضم الاتباع اليهم ، وبخاصة من الرافضة · أما فيما يتصل بتجنيد رجال الدولة للدعوة الجديدة فقد روى البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق » : « ذكروا أنه استمال ببغداد جماعة من حاشية الخليفة ، ومن خدمه ، حتى خاف الخليفة ، وهو جعفر المقتدر بالله ، معرة فتنته فحبسه ، واستفتى الفقهاء فى دمه » ومن المؤكد أنه استمال رجالا لهم خطرهم كنصر القشورى الذى لبس ثياب الحداد بعد مصرع الحلاج (11) ·

أما أسلوب الحلاج فى استمالة العامة عن طريق السحر أو التظاهر بأنه على مذهبهم فقد نبهنا اليه ابن كثير عندما قال : « ولما ورد بغداد جعل يدعو الى نفسه ويظهر أشياء من المخاريق والشعوذة ، وغيرها من الاحوال الشيطانية · وأكثر ما كان يروج على الرافضة ، لقلة عقولهم ، وضعف تمييزهم بين الحق والباطل » (12)

(11) نفس المصدر ص 294 .
(12) البداية والنهاية ج 11 ص 137

واذا كانت دعوته استمالت كثيرا من السذج فى الطالقان فانها لم تلــق النجاح فى بغداد « لبعد أهل العراق عن الانخداع » (13) ·

وأمام هذه الحقائق لا يجد « ماسينيون » مفرا من التسليم بأن هذا الاسلوب البسيط الجرىء فى ضم الاتباع يشبه أسلوب القرامطة فى الدعوة التدريجية الى طائفتهم · لكن سرعان ما يفرق بين هذين الاسلوبين تفرقة مصطنعة ، فيقول : لم يكن هذا الاسلوب عند الحلاج الا منهجا تعليميا · وفى رأينا أن هذا لون من الدفاع الساذج ، لان هذا المنهج البسيط هو الذى دفع بعنق ابن عطاء الله الى سيف الجلاد كما دفع بآخرين من أتباع الحلاج الى التهلكة · وهو فى الوقت نفسه المنهج التعليمى الذى طبقه اخوان الصفا لتجنيد طبقات الاسماعيلية وهي عندهم نفس مراتب أو طبقات القرامطة · وقــد حدد اخوان الصفا هذا المنهج التعليمى الذى طبقه القرامطة والحلاج على حد سواء فقالوا : « ينبغى لمن حصلت له هذه الرسائل من اخواننا الكرام أن يدفع منها الى كل من يستحق ما يقرب من فهمه ، وما يعلم أنه يصلح له أو **يليق بمرتبته** أولا فأول ، على الترتيب الذى رتبناه فى رسالة الفهرسة » (14) ·

ويحاول « ماسينيون » جاهدا أن يبرىء الحلاج من أية نزعة سياسية ، دون أن يفلح · فهو يقول : **أعتقد** أن الحلاج ، مع بقائه خاضعا للسلطة القائمة فى البلد الذى عاش فيه ، كان يسلم نظريا بأحقية العلويين فى المطالبة بالامامة » (15) أما نحن فنجد فى هذا القول دليلا كافيا على صلة الحلاج بالقرامطة والاسماعيلية ، لانه فشـــل فى ضم زعيم الامامية الاثناعشرية الى مذهبه · أما خضوعه للسلطة الحاكمة فذلك أمر يسهل تفسيره بدوافع عديدة ، كدافع التقية وهو مبدأ يسلم به العلويون عـادة ، أو كالرغبة فى أداء رسالة معينة وهي كسب الاعوان فى حاشية الخليفة وفى أمـراء جيشه بل فى أسرته أيضا وهذا ما حققه الحلاج بالفعل · وهذا تفسير أكثر قبولا لدى العقل · ومن السذاجة فى التفكير أن نترك هذه القرائن كلها حتى نسلم بأن الحــلاج كان يؤمن بحق العلويين فى الامامة من الوجهة النظرية فحسب · ويبقى من المقــرر أننا لا نتهم « ماسينيون » فى عقله أو تفكيره ، وان جاز لنا أن نتهمه فى عاطفته عندما يحاول ايهامنا أن الحلاج ظل فى الاتجاه السنى فى الوقت الذى يدعو فيــه للامــام

(13) ابن خلكان وفيات الاعيان ص 408 ·
(14) رسائل اخوان الصفا 4 ص 288 .
(15) ماسينيون نفس المصدر ص 73 ·

العلوى الاسماعيلى وفى الوقت الذى يزعم فيه أن الله حـل فى روحه ، وأنه التجسد الزمنى للاله الذى يترك ساحة الازل لكي ينخرط فى الزمن كما قيل بالنسبة الى تجسده فى عيسى وفى ابن أبى الفوارس · والحق أن الحلاج لا يريد أن يكون مسيحيا كما ظن « ماسينيون » وبعض تلاميذه · وانما أراد تأليه البشر بادئا بنفسه عندما زعم أنـه رب ألارباب · فقد نقل الينا البغدادى : « أنهم ظفروا بكتب له الى أتباعه ، عنوانها من « الهو » الذى هو رب الارباب ، المتصور فى كل صورة الى عبده فلان · فظفروا بكتب أتباعه اليه وفيها : يا ذات الذات ! ومنتهى غاية الشهوات ! نشهد أنك المتصور فى كل زمان بصورة ، وفى زماننا هذا بصورة الحسين بن المنصور · ونحن نستجيرك ونرجو رحمتك يا علام الغيوب » (16) وتلك هي فكرة « الشاهد الآنى » التى شرحها «ماسينيون» ووضحها فى كتابه وفى تعليقاته على كتاب الطواسين للحلاج ·

هذا الى أن الحلاج لم يكن هو الوحيد الذى ادعى الربوبية فقد ادعاها أحـد أتباع مذهبه فى القرن الخامس ، وكان معاصرا للامام الغزالى ، كما أشار الى ذلـك « ماسينيون » وقد حدثنا الغزالى عن الحمقى من الناس الذين يسارعون الى اعتقـاد الباطل تجملا به وتظاهرا بفهمه مع تركهم الحق الواضح لانه جاءهم عن طريق التقليد، فقال : ان بعض الادعياء فى عصره لقب نفسه بناصر الحق ، وزعم العصمة لنفسه ، فصدقه الحمقى من سكان هذا القطر ، وآمنوا بعصمته ، وهرعوا اليه بأموالهم لكـي يقطعهم أرضا فى الجنة ، فكانوا لا يترددون فى شراء الذراع فيها بمائة دينار · ويرى الغزالى أن هذه الحماقة ليست وقفا على هؤلاء الذين سارعوا الى قبول فكرة الامام الاسماعيلى المعصوم ، بل هي نهب مشترك بينهم وبين الحمقى من عامة الناس بدليل أن مدعيا فى جزائر البصرة ، وهو أبو عمرة (17) ، لم يكتف بادعاء العصمة وقيامه مقام الرسول ، بل زعم الربوبية لنفسه « وقد شرع دينا ، ورتب قرآنا ، ونصب رجـلا يقال له على بن كحلا ، وزعم أنه بمنزلة محمد ، صلى الله عليه وسـلم ، وأنه رسوله الى الخلق · وقد بلغ عدد الحمقى الذين آمنوا به زهاء عشرة آلاف نفس ، مع أنـه ادعى العصمة وما فوقها لنفسه ، عندما قال ان الله قد حل فيه وفى جده من قبل» (18)

(16) الفرق بين الفرق .

(17) ماسينيون ، نفس المصـدر ص 335 ، ويسمونه سيدنـا وهو أسمى ألقـاب طائفتهم وكان أحول العينين .

(18) الغزالى فضائح الباطنية ـ وانظـر كتابنا دراسات فى الفلسفة الاسـلامية الطبعة الثالثة دار المعارف .

ويبدو أن الحمقى فى بغداد لم يبلغوا هذا العدد والا لقامت الثورة فيها عقب مصرع الحلاج كما كان يتنبأ بعض هؤلاء الذين أرادوا أن يثنوا الخليفة عن تنفيذ الحكم فى الحسين ابن منصور ٠

ويبدو أن « ماسينيون » يشعر بينه وبين نفسه بكثير من الحرج عندما ينكر الصلة بين الحلاج والقرامطة ، لانه كثيرا ما يعود الى تلك المسألة محاولا تبرئة صاحبه من الاشتراك فى التآمر على الدولة السنية التى يعيش فيها ويخضع لقوانينها ٠ لذلك نراه يقول بأنه من الممكن أن الحلاج ، فى أثناء دعوته الصوفية التى تركزت فى خراسان وفى جوزجان والطالقان ، عبر علنا عن **آرائه السياسية** لهذه البلاد السنية التى كانت تميل ، مع سنيتها ، الى آل البيت ٠ فلما سمع الناس كلامه عن عودة المسيح ، واقتراب الساعة ظنوا ، بناء على التقاليد المتوارثة أن مجيء المهدى قد أصبح أمرا مؤكدا وأن ذلك بشارة بالنصر القريب للعلويين ، وقد حدث ذلك فى نفس الوقت الذى كان فيه دعاة الباطنية يبشرون أيضا فى خراسان جنبا الى جنب مع الحلاج بظهور صاحب الزمان وهو المهدى بعد أن حددوا لظهوره سنة 290 هـ ٠ لكن لنا أن نتساءل : وأي شيء يمنع من أن يقتسم الدعاة الفاطميون ، سياسيين كانوا أم متصوفة ، العمل السياسى فيما بينهم ؟ وما الذى يحول أن تكون هناك دعاية دينية أكثر خطرا يقوم بها الحلاج دعما للعمل السياسى والحربى الذى ينهض به القرامطة منذ عدة سنوات ؟ لقد أظهر « ماسينيون » عجبه الشديد من هذا التوافق المذهل بين الحلاج والقرامطة فى هذه النقطة على الرغم من أن دولة الفاطميين لم تظهر الا فى 299 هـ (19) وقال ان ذلك التاريخ المشترك بين الحلاج والقرامطة يوجد على رأس أحد الاحاديث القدسية للحلاج وهو الحديث الخامس عشر وفيه يقسم بجوهر الميزان وبسنة 290 هـ ، ويتحدث عن الانوار الالهية والارواح التى يتبع بعضها بعضا حتى اليوم الذى يبشر بالسنة السابعة للرسالة ٠

غير أن « ماسينيون »يحاول التملص هنا بأسلوب قد يظنه بعضهم ضربا من الموضوعية ، ويراه آخرون ضربا من الدهاء الساذج ٠ فهو يقول : كدت أميل الى القول بأن هذا التاريخ دليل على أنه دخل فى نظام القرامطة ٠ لكن ذكره للسنة السابعة للرسالة يدل على بدء حياته العامة ، ويشير الى أن الله سيعهد اليه برسالة فردية

(19) وهي نفس السنة التى انتشر فيها ذكر الحلاج كما يقول ابن النديم . ويفسر لنا ذلك كثيرا من الامور التى أحاطت بحياة الحلاج منذ ذلك التاريخ .

وشخصية أي برسالة صوفية · ومن الضرورى أن يقهر المرء عقله أو يسخر منه حتى يقبل تفسير « ماسينيون » الذى لا يمكن قبوله فى حين أن هناك تفسيرا آخر أكثر قبولا · فان ذكر السنة السابعة للدعوة له دلالة واضحة عند الاسماعيلية التى كانت تنتظر ظهور صاحب الزمان ، وهو المهدى المنتظر الذى ينحدر من نسل الامام السابع فى سلسلة أئمة آل البيت · هذا الى أن الاسماعيلية كانت تعرف أيضا بالسبعية · ويعود « ماسينيون » الى الشك فى جدوى محاولة تبرئة الحلاج من الدعاية السياسية فيتساءل مرة أخرى . هل شاطر الحلاج أهل خراسان أملهم السياسى وردد معهم تاريخ سنة 290 هـ ؟ ويجيب بأن هذا التفسير ممكن فعلا وهو يتسق مع نص تاريخى معاصر له يعد أقدم وثيقة تاريخية عن الحلاج ··· ومضمون هذه الوثيقة أن الحلاج كان يدعو الناس فى بدء حياته الى العلويين ، وبأنه كان يقوم بالدعاية فيثير محبة الناس لآل البيت وذلك اما لصالح صاحب الزمان (أي المهدى) واما لفكرة الامام المعصوم بصفة عامة · وقد قال البلاذورى ان الحلاج كان يطلب الى أعوانه أن يدعوا للرضا من آل محمد دون أن يسموا أحدا · وأخيرا أليس لنا أن نكتفى بمثل هذه النصوص والشواهد التى نجدها عند « ماسينيون » لنذكر أن تبرئة الحلاج من الاتصال بالقرامطة لا تستند الى اي أساس موضوعى ·

ومن جانب آخر فان زيارات الحلاج العديدة لخراسان والطالقان والاهواز ، وجرجان وأصفهان وشيراز وقم ونهاوند والبصرة وبغداد ثم العودة الى مركزه الاساسى فى تستر ليست دليلا على حياة صوفية وذاتية ، بل طابع التجول السياسى فيها يفجأ البصر مما دعا « ماسينيون » نفسه الى التساؤل عما اذا كانت هناك صلة بين الدعاية الصوفية والدعاية السياسية للقرامطة فى تلك المناطق التى كانت مسرحا لدعاية مركزة يقوم بها أحد أبناء ميمون القداح منذ سنوات عديدة ؟ والحق أننا لا نرى موجبا لهذا التساؤل ، الذى يمكن أن يوصف بالسذاجة أو الدهاء · ذلك أن كلتا الدعايتين وجهان لعملة واحدة · فقد مزج الباطنية السياسة بالتصوف كما ظل دعاتهم من الفلاسفة ، ونعنى بهم اخوان الصفا وغيرهم ، يمزجون بين الفلسفة والتصوف ويبشرون خلال هذا المزج كله بصاحب القيامة الكبرى الذى سيفسر البعث والحشر والثواب والعقاب تفسيرا يتسق مع الاسس التى قامت عليها الدعوة الباطنية منذ نشأتها ، اي على أن هذه الامور كلها مجرد رموز (20) ·

---

(20) أنظر كتابنا جمال الدين الافغانى حياته وفلسفته . الفصل الخاص بالباطنية .

هذا الى أن تقسيم العمل بين أهل الدعوة الواحدة أمر توجبه دقة التخطيط والتنفيذ معا · ففى الوقت الذى تخرب فيه جيوش القرامطة مدن العراق والشام والبحرين كانت الدعاية الصوفية ، أو السياسة ان شئت ، تؤدى مهمتها بنشاط فى الاقاليم التى انسلخت منذ عهد قريب عن الدولة العباسية ، ولاسيما اذا كانت هذه الاقاليم تدين بمذهب أهل السنة وهو مذهب الخليفة فى بغداد ·

وهناك شىء يدعو الى العجب وهو أن ماسينيون ، على الرغم من سذاجة حججه لا يمل من التساؤل عن مدى الصلة بين القرامطة وبين الحلاج · ويمكن تفسير ذلك الاصرار العجيب ، فى الدفاع عن أمر لا يمكن الدفاع عنه ، بكثرة القرائن التى تشهد بوجود هذه الصلة مما يدعو ماسينيون الى محاولة هدم هذه القرائن واحدة بعد أخرى متظاهرا بالموضوعية التى قل أن تقنع أحدا ، بل هي أحرى أن تثير الشك وتكاد تفوح منها رائحة سياسية معاصرة ترمى الى تجميد الوضع فى العالم الاسلامى الراهن على نحو ما كان عليه فى القرن الرابع الهجرى · وربما فسر لنا هذا الفرض الدور السياسى الذى قام به « ماسينيون » فى القرن العشرين فى كثير من البلاد الاسلامية وفى الجزائر والشمال الافريقى بصفة خاصة ، والدعاية المركزة فى كثير من البلاد لاسطورة الحلاج ·

ولا نريد أن نثقل على الآخرين بأن نستقصى جميع محاولات « ماسينيون » للبرهنة على عدم وجود صلة ما بين القرامطة وبين الحلاج · فهي لا تخرج عن طبيعة المحاولات التى عرضناها حتى الآن · وتكاد تنحصر مهمة « ماسينيون » هنا فى التشكيك فى كل نص قديم يشير الى أن الحلاج كان يدعو الى المهدى الاسماعيلى ·

كذلك وقف ماسينيون وقفة طويلة أمام نصوص عديدة تشهد بزيارة الحلاج للهند لتعلم السحر الذى سيدعو به الى الله ، على نحو ما كان يفعل دعاة القرامطة · ومع اعترافه بهذه الزيارة فان منهجه فى تجريح هذه النصوص لا يختلف كثيرا عن منهجه فى محاولة البرهنة على عدم وجود صلة بين الحلاج والقرامطة عن طريق الطعن فى نصوص عديدة أخرى · وقد رأى أن يتصدى لابن حزم الذى اتهم الحلاج بالشعوذة حتى يؤكد لنا أن الحلاج كان صاحب معجزات · ولن نستطرد هنا لمسالة المعجزات أو الحيل فربما عرضنا لهذه المسالة فى مناسبة أخرى بشىء من التفصيل ، وان كنا لا نكتم اشفاقنا على المجهود الذى بذله « ماسينيون » فى البرهنة على صدق وجهة نظره ، مع أنه يؤكد لنا أن بلاد الهند التى زارها الحلاج كانت تموج فى تلك الفترة

بدعاة القرامطة والاسماعيلية · لقد قال الذهبى فى كتابه « ميزان الاعتدال فى نقد الرجال » ، « الحسين بن منصور المقتول على الزندقة ، ما روى ، ولله الحمد ، شيئا من العلم · وكانت له بداية جيدة ، وتأله وتصوف · ثم انسلخ من الدين وتعلم السحر ، وأراهم المخاريق · أباح العلماء دمه فقتل » أما رد « ماسينيون » على هذا النص ، فيتلخص فى أن الله ابتلى الذهبى بالعمى فى آخر حياته ، كأنه يوحى بأن ذلك العمى كان أحد كرامات الحلاج بعد مصرعه !

ولن تغرينا طرافة هذا الموضوع الخاص بكرامات الحلاج أو معجزاته أو حيله على أن نستطرد أكثر مما فعلنا ، بل علينا أن نستمر فى البرهنة عن طريق كتابات « ماسينيون » على أن الحلاج كان يقوم بمهمة سياسية فى المقام الاول · فقد نقل الينا هذا المستشرق قصة طرد الحلاج من مدينة « قم » عندما أراد ضم أهلها الى دعوته فأرسل كتابا الى أحد كبرائها وهو ابن بابويه يدعى فيه أنه رسول الامام اليه · فلما لقيه ابن بابويه رفض الاستجابة اليه وأمر بضربه ، وسخر منه ومن معجزاته ، ثم شيعه بلعناته · فلم ير أحد الحلاج فى مدينة « قم » بعد ذلك أبدا (21) ·

وقد اخفق الحلاج أيضا فى استمالة كبير الامامية ببغداد وهو أبو سهل اسماعيل ابن نويخت وكان لاسرته فى بغداد مكانة كبيرة شبه مكانة أسرة البرامكة فى صدر دولة العباسيين · وقد مهدت أسرة بنى نويخت هذه الدولة بنى بريه فيما بعد · وكان أبو سهل رئيس هذه الاسرة شاعرا ومتعلما وهو الذى اتجه بالامامية الاثناعشرية الى اعتناق آراء المعتزلة وله كتاب ضد الغلاة من الشيعة القائلين بتأليه الامام · فهو اذن صيد ثمين فى نظر دعاة الدولة الاسماعيلية فى دور الظهور · وقد روى ان الحلاج ظن أن أبا سهل بن نويخت ربما صدق دعوته وآمن بمعجزاته وأعانه على أمره فكتب اليه بانه **وكيل صاحب الزمان عليه السلام** ، وكانت تلك هي الخطوة الاولى فى محاولة ضم الاعوان التى تتلوها خطوات أخرى ، كما هي عادة دعاة الغلاة من الباطنية · ثم أخبره الحلاج فى كتابه أن صاحب الزمان قد كتب اليه لكي يطلعه على المعجزات الكفيلة باقناعه · « ذلك أن صاحب الزمان يشفق عليك وهو يريد أن يضمك اليه » فأجابه أبو سهل : انى أسألك عن شيء صغير جدا لا تعجز عنه الى جانب ما جرى على يديك حتى الآن » ثم يرجو الحلاج أن يعيد اليه سواد شعره لانه يحب الجوارى ، وعنده عدد كبير منهن · لكنهن ينفرن منه لبياض شعره مما يضطره الى صبغه · ثم

---

(21) ماسينيون ، المصدر السابق ص 152 .

يقول له انه لو أعاد اليه سواد شعر لحيته لاسرع اليه ولاطاعه ولتكلم بلغته ، ولاعتنق مذهبه بكل ما لديه من ذكاء ، وسيكون خادما له ثم يطمئنه فى نهاية كتابه قائلا : اجعل الشعر الاسود ينبت فى لحيتى وسأقول لك انك نائب الامام أو الامام أو الرسول أو اللـــه ان شئـت !

ويجب أن نقدر « لماسينيون » اعتداله فى نقد تلك القصة التى لا ينكرها · فقد فسر مسلك أبى سهل بن نويخت بأنه كان متأثرا بصديقه أبى على الجبائى شيخ المعتزلة ، وهو رجل شديد النقد لكرامات الصوفية أو حيلهم ، وبأن ابن نوبخت اعتقد ، مـــن جانب آخر ، بسبب خبرته السياسية الطويلة ، أن الحلاج ليس الا أداة فى يد مؤامرة سياسية ضد السلطة القائمة · ومن ثم رأى من المناسب أن يدرسه عن كثب لكي يعجم عوده · وانا لنتفق تماما مع « ماسينيون » فى هذا التفسير لانـــه يؤكد مـــا جاء فى نصوص كثيرة ، رواها « ماسينيون » نفســـه ، من أن الحـــلاج كان من أكبـــر دعـــاة القرامطة ، بل يمكن القول بناء على كتابه الذى ارسله الى ابن نوبخت ، بأنه كان يحتل فى التنظيم السرى للاسماعيلية درجة عالية هي درجة الحجة أو الباب · لكننا لا نتفق مع « ماسينيون » عندما ينسب الى بنى نويخت أنهم هم الذين أوقعوا بالحلاج واتهموه بادعاء الربوبية بعد أن نجح فى استمالة بعض خصومهم السياسيين من كبار رجـــال الدولة (22) ، ولا سيما أن الاوراق التى ضبطت مع الحلاج عندما قبض عليه فى مدينة السوس كانت تشهد بادعائه للربوبية : ولقد لجأ « ماسينيون » فى تجريح بنى نوبخت الى أسلوب لا نرضاه لباحث موضوعى فانه يصر على أن الحلاج كان متصوفا سنيـــا حاربته أسرة شيعية ، مع أن الحكم على زندقة الحلاج كان باجماع الفقهاء من أهـــل السنة ، وان حاول « ماسينيون » الطعن فى نزاهتهم · ان « ماسينيون » يعرف الشىء الكثير عن حقيقة تصوف الحلاج وعن مدى تأثره بآراء المانوية والمزدكية والفيثاغورية وماسونية القرامطة · وقد كان ينبغى له أن يتحرج بعض الشىء فى وصف الحـــلاج بأنه متصوف سنى ما دام يعترف فى الاقل بأن الحلاج كان يؤكد أن الولى أسمى مرتبة مـــن النبـــى ·

ويكفى أن نقرر أن مسلك « ماسينيون » فى هذه التهمة التى يوجهها الى الامامية الاثناعشرية تفوح منها رائحة سياسية معاصرة · وكان ينبغى له أن يشيد ، على عكس ذلك ، بحنكة أبى سهل بن نويخت وذكائه وبعد نظره السياسى · وهل لنا أن نـــزعم

(22) ماسينيون ــ المصدر السابق ص 157 ·

ان « ماسينيون » يتظاهر هنا بعدم الفهم ؟ فمن الثابت أن الاسماعيلية فى دور الستر كانت حريصة على جر الامامية الاثناعشرية وراءها فى الثورة السياسية ضد الدولة العباسية السنية منذ منتصف القرن الثانى · لكن بنى نوبخت فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع كانوا أكثر فطنة مما تصور دعاة القرامطة ، لانهم رأوا أن التحالف مع أهل السنه فى تلك المرحلة الدقيقة أفضل بكثير من الانضمام الى دولة جديدة بدأت طلائعها بثورة الزنج ثم امتد نشاطها فى ثورة القرامطة التى كانت لا تفرق فى حروبها غير الانسانية بين أهل السنة وبين الامامية الاثناعشرية (23) · وقد أدت فراسة بنى بويه الى نتائجها · فاستولى بنو بويه على السلطة الزمنية ابتداء من سنة 334 وان لم يحل ذلك دون سيطرة الاسماعيلية على الحكم فى بغداد لفترة من الزمن فيما بعد · وقد أراد « ماسينيون » أن يربط بين استيلاء البويهيين على السلطة وبين انتهاء غيبة الامام الاثنى عشرى الصغرى وقيام الغيبة الكبرى (24) بعد أن تحققت للامامية الاثناعشرية أهدافها السياسية ·

وقد سلك « ماسينيون » مسلكا ضعيفا فى الدفاع عن الحلاج عند حديثه عن محاكمته · فهو يصر اصرارا عجيبا على نفى الصلة بين الحلاج وبين القرامطة بالرغم من كثرة الشواهد التى تؤكد وجود هذه الصلة فى الاوراق التى ضبطت مع الحلاج وقدمت الى هيئة القضاء ، تلك الاوراق التى كانت تحتوى على كثير من الرموز والنظريات التى لم تفهم فى بدء المحاكمة سنة 301 ثم بدأ فك رموزها فيما بعد · وقد حاول ماسينيون أن يزعم أن الحلاج لم يحاكم كقرمطى أو داعية من دعاتهم ، بل حوكم بتهمة الزندقة وادعاء الربوبية فحسب كأنما ينسى أن تهمة الزندقة وجهت من قبل الى دعاة القرامطة كابن أبى الفوارس ، كما ينسى أن الحلاج انما أدين فى المقام الاول لمحاولة أبطال فريضة الحج ، وأن القرامطة انتقموا له بهدم الكعبة ونزع الحجر الاسود منها ، وقالوا انهم نزعوه بأمر وردوه بأمر (25) ·

ومهما يكن من أمر ، فان محاكمة الحلاج التى امتدت من سنة 301 هـ الى 309 كشفت عن أمور كثيرة أهمها ما تميز به القضاء الاسلامى ، حتى فى أحلك عصوره

(23) فيما بعد أي فى سنة 352 أثار عضد الدولة بن بويه الصراع بين هاتين الطائفتين ·
(24) ماسينيون ، نفس المصدر ص 159 ·
(25) أنظر مقالنا السابق الحلاج والقرامطة ·

وفى فترة الرعب التى كان يعيش فيها أهل العراق ، عن شدة الحرج من اصدار حكم بالتكفير على من ينطق بالشهادتين • وهذا الحرج هو الذى يصفه ماسينيون بانه كان من أسباب ضعف الدولة الاسلامية (26) ، وان اعترف بأن اجماع الفقهاء على ادانة الحلاج لم يتم ، الا بعد أن اقتنع الناس بزندقة الحلاج الذى يرى أن النطق بالشهادتين فى مرحلة من مراحل تصوفه يعد شركا ، وأن صلاة العارفين تعد كفرا •

ولا نريد أن نعرض لتفاصيل محاكمة الحلاج ، التى يمكن أن تعرض بصور مختلفة ، بل سنقتصر على ذكر الوقائع التى تتصل بموضوع الصلة بين الحلاج والقرامطة • فقد فر الحلاج عندما بدأت الشكوك حوله فاختفى فى مدينة السوس وجعل يدعو الى الله سرا على حد قول « ماسينيون » ، وظل يتابع دعوته هذه حتى قبض عليه مصادفة « وكان السبب فى أخذه أن صاحب البريد بالسوس اجتاز فى موضع بالسوس يعرف بالربض والقطيعة • فرأى امرأة فى بعض الازقة وهي تقول : ان تركتمونى والا تكلمت • فقال لاعرابى معه : اقبضوا عليها • فقال لها : اي شيء عندك ؟ فجحدت » • فأحضرها منزله وتهددها . فقالت : قد نزل فى جانب دارى رجل يعرف بالحلاج ، وله قوم يصيرون اليه فى كل ليلة ويوم خفية • ويتكلمون **بكلام منكر** • فوجه من ساعته الى جماعة من أصحابه وأصحاب السلطان ، وأمرهم بكبس الموضع ففعلوا • فأخذوا رجلا أبيض الرأس واللحية • قبضوا عليه وعلى جميع ما معه (27) •

وقد وجدوا معه أيضا نقودا فضية ومسكا وثيابا وعنبرا وزعفران • ثم سألوه هل أنت الحلاج ؟ فأنكر • ولما ذهبوا به الى دار صاحب البريد أنكر أنه الحلاج • لكن تعرف عليه أحد الحاضرين • فساروا به الى بغداد • فادعى أولا **أنه المهدى** ، ثم غير أسلوبه فقال انه رجل تقى يعبد الله • ولما دخل بغداد فى شهر رجب سنة 301 نودى عليه بأنه أحد رجال القرامطة • ثم حبس مدة طويلة فافتتن به جماعة من الناس ومن بينهم نصر القشورى وتناقل الناس أخبار معجزاته • وفى أثناء محاكمة الحلاج ، التى طالت ، كان القضاء يبحث عن أعوانه الذين وجدت أسماؤهم فى أوراقه • فظفر صاحب الشرطة بثلاثة من أصاحبه « وهم حيدرة والشعرانى ، وابن منصور ، فطالبهم بالرجوع عن اعتقادهم فيه فلم يرجعوا فضرب رقابهم وصلبهم فى الجانب الشرقى » •

---

(26) ماسينيون نفس المصدر ص 184 .

(27) الفهرست لابن النديم جـ 1 ص 191 وماسينيون ص 228 .

وظل الوزير حامد بن العباس يبحث عن أعوان الحلاج واستخدم الجواسيس فقبض على السامرى ومحمد بن على القنائى وأبى بكر الهاشمى الذى سماه الحلاج أبا المغيث وكان يقال انه نبيه · وقد عثر عند القنائى وعند تلميذ آخر للحلاج على عدد كبير من الاوراق ، وعلى كتب مكتوبة على ورق الصين بماء الذهب ومجلدة بالحرير والجلد الفاخر · كذلك عثر على أوراق بأسماء أتباع آخرين للحلاج ومنهم ابن بشر وشاكر البغدادى وكانا يجوبان فى منطقة خراسان ، كما فعل الحلاج من قبل ، وقد احتوت بعض الخطابات التى كان يرسل بها الى أتباعه وعماله فى مراكز الدعوة على تعليمات محددة لجذب الناس اليهم ولضمهم الى الدعوة درجة بعد درجة حتى ينتهوا بهم الى الغاية القصوى من مذهبه ، مع مخاطبة كل منهم على قدر عقله وفهمه (28) ، وتلك هي طريقة القرامطة واخوان الصفا كما رأينا من قبل · أما الاجابة على تلك الرسائل فكانت تحتوى على رموز يفهمها الحلاج وتلاميذه · وكانت بعض هذه الرسائل تحمل شعارا على هيئة دائرة يوجد داخلها اسم على وفى وسطه كلمة الله · وقد قال « ماسينيون » معلقا على هذا الشعار انه شعار أمامى ولم يكن الحلاج اماميا ، وان حامدا ومساعديه لم يفهموا شيئا من المصطلحات الصوفية الفنية فى مراسلات الحلاج · ولا ريب عندنا فى أنهم لم يستطيعوا أيضا حل رموز الشفرة التى كان يستخدمها القرامطة فى ذلك الحين ·

ومع ذلك ، فان بعض الرسائل التى كان يبعث بها عماله فى الاقاليم كانت لها دلالة خاصة ، اذ جاء فيها أنهم يبشرون به فى كل البلاد بالاسم الذى يقدسه الناس ، فبعضهم يبشر به على انه **باب الامام** ، وبعضهم يبشر به على أنه صاحب الزمان (الامام) وآخرون يقولون انه « هو هو » أي الله · وعلى الرغم من هذه الالقاب التى تكشف عن حقيقة الدور السياسى الذى قام به الحلاّج فان « ماسينيون » اكتفى بأن شكك فى صحة بعض هذه الالقاب فقال : ان « باب الامام » مصطلح امامى ، ويعبر عن الامام المهدى الذى تنتظر الامامية ظهوره · ونسى هنا أن عمال الباطنية كانوا يخاطبون كل قوم حسب فهمهم ومعتقدهم · لكنه لم يعلق بشىء على مصطلح « صاحب الزمان » وهو مصطلح اسماعيلى ، ولا على مصطلح « الهو هو » مع أنه يدل على نظرية أساسية عند الحلاج فى كتاب الطواسين الذى حققه « ماسينيون » ونشره · وأخيرا يختتم دفاعه الضعيف فى هذه المسألة بقوله ان هذه الرسائل خاصة بابن القنائى وهو شيعى ؟!

---

(28) ماسينيون ، المصدر السابق ص 252 .

كذلك عثر فى تلك الاوراق المضبوطة على منشور أرسله الحلاج الى أتباعه وعماله وفيه يخبرهم أن الزمان دارت دورته ، أي بعد أن ظهرت دولة الفاطميين فى سنة 299 ، ويطلب اليهم أن يدعوا الناس الى الاسرة الفاطمية التى طال انتظار الارض والسماء لها · فان الله قد سمح بظهورها وبأن تمتد الى خراسان حتى يكشف الحق حجابه ويفتح العدل ذراعيه (29) ، وفعلا ظهرت الاسماعيلية النزارية فيما بعد وهي الفرع الذى ينتمى اليه الحسن الصباح الذى يصفه الماسون بأنه الاستاذ الاكبر للماسونية فى العالم الاسلامى · ويكتفى « ماسينيون » فى رد هذه التهمة السياسية بأن الخطاب كان مزورا مع أن الدولة الفاطمية كانت قد ظهرت بالفعل وكانت ثورة القرامطة لا تزال تعمل لحسابها فى الشرق · ومع ذلك لا يجد « ماسينيون » مفرا من الاعتراف بأن بعض الرسائل الاخرى كانت بأسلوب الحلاج مثل قوله : من « هو هو » من الازلى ، من النور الشعشعانى ، من النقطة الاصلية ، من دليل الادلة ، من رب الارباب ، يا مجمع السحب يا رب سينا ، ومن تشكل بكل صورة ، الى عبده فلان لكن ينكر « ماسينيون »ما احتوت عليه هذه الرسائل بعد تلك المقدمة · وما كان من المستطاع أن يشكك فى مقدمة هذه الرسائل لان ذلك يتسق تماما مع فكرة الحلاج التى عرضها فى الطواسين ·

واحيانا نجد « ماسينيون » يحاول التهرب من التعليق على مضمون الرسائل التى كان يتلقاها الحلاج من أتباعه ، اذ لا يمكن القول بأنها مزورة · لكنه لا يلبث أن يعترف بأنها تحتوى على أفكار حلاجية لانها تقول بأن الله يتجسد فى بعض الافراد فى كل زمن · وفى أثناء المحاكمة جيء بخطاب عثر عليه مع رجل فى دينور ، وكان يخفيه فى مخلاة لا يفارقها ليلا ولا نهارا وكان بخط الحلاج نفسه وقد بدأه بقوله : « من الرحمن الرحيم الى فلان بن فلان » فأرسل الخطاب الى المحكمة ببغداد وعرض على الحلاج فاعترف أنه بخطه وأنه كتبه · فقيل له كنت تدعى النبوة فصرت تدعى الربوبية · فقال ما أدعى الربوبية » وانما هذا ما نسميه « عين الجمع » (أي الاتحاد بالله) وهذا هو جوهر الاتحاد ، وهي حالة صوفية يكتب فيها الله ولست الا آلة · ثم سئل هل هناك من هو على رأيك ؟ قال : نعم ، ابن عطاء الله وأبو محمد الجريرى وأبو بكر الشبلى لكن الجريرى والشبلى يستتران · فدعى الجريرى وسئل فأجاب : « هذا كافر ويقتل » ويقتل كل من يقول هذا القول · أما الشبلى فقال : اذا تكلم أحد

(29) ماسينيون ، نفس المصدر ص 254 .

بمثل هذا الكلام فيجب منعه · ثم سئل ابن عطاء عن مقالة الحلاج ، فصرح كتابة انـه يؤمن بهذه العقيدة ، وبأن من لا يؤمن بها فهو كافر · فأمر الوزير بمحاكمته ، فحضر وجلس فى الصف الاول وسأله الوزير هـل هذا خطك فقال نعم · فقال لـه الوزير : أتوافق على هذا المعتقد ؟ فقال : ما شأنك وهذا الرجل يعنى الحـلاج ، لماذا تتبعـه بحقدك ؟ لماذا تصادر أموال الناس وتسىء معاملتهم وتقتلهم · وحوكم ابن عطاء ثم أعدم بعد ذلك بأيام (30) وفيما بعد سيحتج « ماسينيون » لمعجزات الحلاج بشهادة ابن عطاء الذى ضحى بنفسه ايمانا بصدق الحلاج فى ادعاء الالوهية ·

ويبدو أن ابن عطاء كان من أشد خلصاء الحلاج بدليل أن هذا الاخير كان حريصا كل الحرص على أن يحتفظ ابن عطاء بما عنده من مخطوطات شخصية وكان من بينها « كتاب الطواسين » الذى لم يظهر الا بعد فترة طويلة من الزمن · وقد نقل ابن خفيف هذه الوصية الى ابن عطاء ، ذلك أن ابن خفيف أتيح له زيارة الحلاج فى سجنه الذى أعده له نصر القشورى وجمله بأفخر الاثاث · فلما علم ابن عطاء بالوصية قال لابن خفيف : لئن رأيته قل له اننى سأحفظ هذه الكتابات فى مكان أمين ولو أدى ذلك الى أن يقع لى ما وقع له (31) ·

وعلى الرغم من هذه الشواهد العديدة التى لا ينكرها « ماسينيون » ، والتى تدل على أن مذهب الحلاج لم يكن يتسق ، لا مع مذهب أهل السنة ولا مع مذهب الامامية الاثناعشرية ، فقد كان السبب فى ادانته هو موقفه من فريضة الحج التى أراد ابطالها والاستعاضة عنها ببديل ، مع أن الاسلام لم يوجبها الا ، على من يستطيع القيام بها · وقد عثر حامد بن العباس فى الاوراق المضبوطة مع الحلاج على ما يثبت تلك التهمة · فقد رسم الحلاج طقوس الحج الذى رأى الاستعاضة به عن الذهاب الى مكة فقال : متى أراد المرء أداء فريضة الحج فله أن يقيم فى حجرة من منزله فيجعل فيها محـرابا بشروط معينة ، ثم يتطهر ويحرم ، وأن يقول كذا ويفعل كـذا وأن يصلى هكذا ، وأن يقوم بأفعال أخرى يفصلها الحلاج تفصيلا · فاذا قام بذلك سقط عنه الحج الى بيت اللـه الحـرام ·

وقد ذكر ابن عياش أن أحد رؤساء الحلاجين اعترف له بذلك وقال : ان الحلاج أخذها عن آل البيت · غير انه أضاف انه ليس بصحيح أن هذه الطريقة تغنى من الحج ولكنها تعد بديلا منه عندما يعجز المرء عن السفر الى مكة لفقر أو لمرض ·

(30) ماسينيون نفس المصدر ص 259 ـ 260 .
(31) نفس المصدر السابق ص 272 .

وفى رسالة أخرى يحدد الحلاج مناسك الحج فى تلك الحجرة التى يمكن أن تكون بديلا عن المسجد الحرام ، ثم يقول فاذا ما انتهى المرء من هذه المناسك جمع ثلاثين يتيما وأعد لهم أفضل طعام ودعاهم الى دخول هذا الحرم الذى أقامه فى بيته ثم يخدمهم بنفسه فاذا ما انتهوا من الطعام كسا كل واحد منهم ثوبا وأعطاه سبعة دراهم ، ومتى فعل ذلك سقط عنه الحج • فلما قرأ القاضى ذلك التفت الى الحلاج وقال : من أين أخذت ذلك ؟ فقال : من كتاب الاخلاص للحسن البصرى • فقال : كذبت يا حلال الدم سمعنا قرأءة كتاب الاخلاص للحسن البصرى ولم نجد فيه هذا الكلام الذى تذكره • ولا يبعد أن يكون للحلاج واخوانه هدف خاص فى اختيار اليتامى فربما كان ذلك لتجنيدهم للدعوة أو لصرفهم عن الحج الحقيقى فيما بعد • ومهما يكن من شىء ، فان الحلاج جعل يحتج عندما صدر الحكم بادانته بسبب ابطاله لشريعة الحج ويقول ان له كتبا سنية توجد عند الوراقين •

ويعترف ماسينيون أن كتابات الحلاج تحتوى على نصوص أخرى يعالج فيها الشعائر الاسلامية الباقية على نحو ما فعل بالحج • فقد جاء فى هذه الكتابات أن الانسان اذا صام ثلاثة أيام أو أربعة ، دون أن يتناول شيئا ثم أكل أوراق الهندابة كغذاء أعفاه ذلك من صوم رمضان ، واذا صلى فى ليلة ركعتين تبدأن من الليل الى الصباح سقطت عنه الصلاة الشرعية طيلة حياته ، واذا تصدق مرة بكل ما يملك سقطت عنه فريضة الزكاة ، واذا بنى حرما وطاف به عاريا عدة مرات سقط عنه الحج واذا لزم قبر الشهداء فى مقبرة قريش عشرة أيام يصلى ويدعو الله ويصوم دون أن يتناول شيئا سوى قليل من خبز الشعير والملح الخشن ، فان هذا يسقط عنه كل عبادة طيلة حياته لكن ماسينيون يضيف شرطا للحلاج وهو أن يفعل المرء ذلك وهو بملابس الاحرام (32) • وأخيرا يؤكد لنا ماسينيون ، الذى بذل جهدا خارقا للعادة لانكار أية صلة بين الحلاج والقرامطة ، أن نظرية الحلاج فى الحج « قد جردت مكة من أفضليتها وقداستها ، بل شجعت العدوان على الحجاج ، فنهب القرامطة مكة وهدموا الكعبة ونزعوا منها الحجر الاسود فى الرابع عشر من ذى الحجة سنة 317 هـ ، أي بعد مصرع الحلاج بثمان سنوات » (33) •

---

(32) ماسينيون ، المصادر السابق ص 284 .

(33) المصدر السابق ص 248 .

وشىء آخر له دلالته العميقة فى دراسة ماسينيون وهو أنه يقرر دون تـردد ولا حرج أن نسخ شرائع الاسلام يرتكز على مبدأ أساسى عند الحلاج وهو مبدأ اسقاط التكاليف ، اذ ليس ثمة جدوى من وجود هذه الشعائر التى تعـد وسائط بين اللــه والانسان : أليس هذا هو لب المذهب القرمطى الذى يصف العبادات بأنها مجرد رموز يراد بها بعض الغايات الاجتماعية ، والذى يدعو الى تأليه البشر صرفا لهم عن عقيدة التوحيد · ثم يأتى « ماسينيون » بعد ذلك كله ويزعم أنه من المحتمل جدا أن يكون ما نسبه الحلاج الى الحسن البصرى فى مسألة الحج أمرا صحيحا ، مع ما نعلمه مـن حرص « ماسينيون »على استخدام النصوص وان كان يؤولها تأويلا غريبا فى أكثـر الاحيــان ·

لكننا لم نره يكشف لنا عن النص الذى يزعم أنه من المحتمل أن يكون فى كتـاب الاخلاص على الرغم من أن فقهاء بغداد وصفوا دعوى الحلاج فى هذا الصدد بالكذب · فمن الواضح أن ماسينيون لا يجد حرجا فى محاولة تدنيس تاريخ الحسن البصرى التابعى الجليل نصرة لقضية خاسرة أراد أن يجعـل منها ملحمة فى عصـر أصبـح لا يتسع للاساطير · ومن جرأة ماسينيون على الحق أنه يطعن فى القضاة الذين لم يبتوا فى قضية الحلاج الا بعد ثمان سنوات ، فيقول : انه من المحتمل جدا أن يكـون هناك اتفاق سابق بين القضاة وبين الوزير حامد ، مع اعتراف هذا المستشرق بـأن القول باسقاط التكاليف أو نسخ شعائر الاسلام نظرية حلاجية أكيدة ·

ولابد من أن نقرر أن الغاية التى وضعها ماسينيون نصب عينيه كانت تبرر له أن يسلك مسلك التناقض وأن يتهجم دون حياء على الحسن البصرى وعلى قضـــاة المسلمين نصرة للحلاج الذى اعتقد أنه الجسر بين المسيحية وبين الاسلام السنى · ان تلك الفكرة السابقة هي التى افسدت على « ماسينيون » أشياء كثيرة على المستويين النظرى والعملى · فقد أخفق مثلا فى الربط بين المسيحية والاسلام عن طريق نظـام الآبـاء البيض فى الشمال الافريقى ·

من قضايا النخبة المثقفـــة فى الاقطار العربيـــة

د. الحبيب الجنحانى
أستاذ بالجامعة التونسيـة



ان موضوع النخبة المثقفة ، وما يتصل به من قضايا قد درس بعمق فى البلدان المتطورة ، ولا سيما خلال العقدين الاخيرين ، وبالرغم من ذلك فما فتىء الباحثون فى شؤون الفئات الاجتماعية ، أو المهتمون بعلم الاجتماع الثقافى ، يولونه ما يستحقه من عناية وتدقيق .

وقد حظى ببعض الدراسات السريعة فى الاقطار العربية ، حاول فيها أصحابها دراسة الموضوع حسب معطيات المجتمع العربى ، وقد تسرب الى بعضها خطا أساسى ، وهو الانطلاق من المفهوم الاوروبى للنخبة المثقفة ، ومن المعروف انه مفهوم تطور حسب مراحل تاريخية معينة ، وهى متباينة فى معطياتها الاساسية مع المرحلة التاريخية التى تمر بها الاقطار العربية .

انه من المعروف ان ليس هنالك اتفاق حول تحديد مفهوم النخبة المثقفة ، وخاصة حول تصنيف المتسبين اليها ، ولذا فاننا نبادر بالقول بأن الفئات المعينة هنا هى :

- **فئة الفنيين التكنوقراطيين .**
- **أصحاب المهن الحرة من حاملى الشهادات الجامعية مثل المحامين ، والاطباء والصيادلة .**
- **فئة الفنانين المبدعين مثل الرسامين ، والمخرجين السينمائيين .**
- **رجال الفكر ، وفى مقدمتهم الكتاب .**
- **فئة المساهمين فى نقل الانتاج الثقافى ، ونشره مثل الصحافيين الثقافيين ، ومن لهم علاقة بالتنشيط الثقافى .**
- **فئة الجامعيين .**

اننا قصدنا اعطاء مفهوم النخبة المثقفة فى الاقطار العربية طابعا شاملا ، لان تعريف المنتسبين الى النخبة المثقفة بأنهم أولئك « **الذين يعيشون من ممارسة العمل الفكرى ، ومن أجله** » حسب تعبير (ريمون ارون) يخرج مثلا حاملى الشهادات الجامعية البعيدين عن الانتاج الفكرى ، وهم أولئك الذين أصبحوا بعد تخرجهم يمارسون مهنة يومية مثل التدريس ، أو معالجة المرضى بالنسبة للاطباء ، أو المحاماة ، أو الهندسة .

ان مجرد حمل شهادة جامعية لا يكفى ـ اذن ـ ان يكون مبررا للانتساب الى النخبة ، ويمكن أن يصنف ضمنها شخص آخر مثقف ثقافة ذاتية للشخصية ، ولم ينتسب يوما ما الى هيكل جامعى .

ولكن بالرغم من هذا المفهوم الشامل الذى أردنا اضفاءه على مصطلح النخبة المثقفة فان فئة الكتاب والفنانين المبدعين تبقى فى قمة الهرم ، وهى التى اجمع الباحثون على انتسابها للنخبة ، بل قد حسبوها عصبها المحرك باعتبارها المجموعة الوحيدة القادرة على أداء رسالة النخبة المثقفة فى مجتمعها ، وهى رسالة نستطيع تلخيصها فى النقاط التالية :

1 ـ قيادة عمل التقدم ، وتفسير الواقع حسب رؤية شمولية مستقبلية .

2 ـ تدعيم النظرة العقلانية لشؤون المجتمع .

3 ـ اضفاء مظاهر الجمال على الحياة اليومية الرتيبة مع عمل هادف لغرس روح السمو والتفاؤل فى العلاقات البشرية ، وهنا يبرز عمل الفنانين بالخصوص ضمن فئة النخبة المثقفة •

4 ـ نقد السلطة الحاكمة ، وفضح أدوارها الخفية ، والتصرفات المشبوهة ، كلما ظهرت فى قطر من الاقطار ، وذلك عن طريق العمل المسرحى ، أو القصة ، و الفيلم النقدى الهادف ، أو الدراسة التحليلية •

وحين نعود الى مشاكل النخبة المثقفة فى الاقطار العربية ، فاننا نلاحظ أمرين بارزيـــن :

أولا ـ ان هذه النخبة المثقفة تشكو تخلفا مهولا باعتبارها بنية فوقية لهياكل المجتمعات التى تنتسب اليها ، وذلك بالرغم من الدور الطلائعى المناط بها ، فهى مطالبة بالمساهمة الفعالة فى معركة الخروج من التخلف فى نفس الوقت الذى تعانى فيه من مظاهر تخلف رهيب !!

ثانيـــا ـ ان التخلف الذى تشكو منه الاقطار العربية يقتضى منطقيا أن يكون للنخبة المثقفة دور واضح فعال فى تسيير شؤونها ، والمشاركة فى تحديد مصيرها ، ولكننا نجدها فى الواقع تعيش هامشيا فى مجتمعاتها ، بل قل محاصرة تكاد تختنق فى أغلب الاقطار العربية ، ونعنى بالخصوص المجموعات الفعالة ذات النظرة العميقة المحللة لقضايا بلدانها ، والتى بلغت درجة النضج الفكرى فأصبحت لها رؤية شمولية كونية • أما الاصناف الاخرى المشار اليها ضمن فئة النخبة فسنرى أن بعضها تتمتع بامتيازات كبرى ثمنا لفقدان الوعى ، والتملص من رسالة النخبة ، وخاصة فى مجتمع متخلف • اننا نكاد نلمس المظهرين المذكورين فى أكثر الاقطار العربية ، أما التناقضات الاخرى فهى تتباين أحيانا من بلد عربى لآخر حسب النظام السياسى والاجتماعى • وحسب التطور العام الذى بلغه هذا النظام ، أو ذاك ولكننا سنكتفى بالتلميح الى المميزات الاساسيـــة •

ان النخبة المثقفة العربية الحاملة لمشعل التحديث والتجديد تعيش تناقضات

عميقه ، فهى باعتبارها جبهة موحدة تعيش صراعا مستمرا ضد فئات محافظة تقليدية تتمسك بقوالب عصور الانحطاط فى تاريخ المجتمع العربى الاسلامى ، وما أفرزته من عقليات متحجرة ، وشعارات زائفة جوفاء ، وهى مستعدة أن تسلك جميع السبل فى سبيل المحافظة على امتيازات مرتبطة بالدوران فى فلك السلطان ، ولعل هذا النوع من الصراع أخف وطأة عليها من الصراع الداخلى الذى تكمن وراءه خلافات عقائدية وبالتالى سياسية ، فهو صراع يقود الى التصدع ، ثم الى الهزال واضطرار ضعفاء الايمان الى اعلان التوبة ، والركض وراء ركب ذوى السلطان · ولا مناص من الملاحظة هنا أننا نقرأ أحيانا ، أو نسمع نقدا لاذعا موجها الى رجال النخبة المثقفة لما يبدو من تباين فى وجهات نظرهم ، واختلافاتهم العقائدية ·

اننا نؤمن ان هذا الصراع الايديولوجى المعروف اليوم فى صفوف النخبة المثقفة العربية أمر طبيعى ، فهو مرتبط بنظرة أفرادها المستقبلية ، وبتحديد رسالتهم فى تغيير أوضاع مجتمعاتهم ، فقضية المصير العربى ما تزال مطروحة : أى سبيل ينبغى أن تسلـــك ؟

هذا وقد أشرنا الى أنهم أبناء بيئاتهم بتناقضاتها ومظاهر تخلفها ·

ان المؤلم فى هذا الصراع الداخلى ليس الاختلاف فى الرؤية بل انعدامها لدى عدد كبير من أفراد النخبة المثقفة العربية بالمفهوم الواسع الذى حددناه ·

اننا لا نذيع سرا حين نقول ان هنالك عددا كبيرا من أفراد النخبة المثقفة فاقـدا للوعى ، عديم الرؤية ، وهذا مظهر من مظاهر تخلف النخبة ، وهو أشد وطأة ، وأفضح من تخلف الآخرين ·

ونلاحظ أن انعدام الوعى هذا لا نكاد نجده فى صفوف الفئة الطلائعية داخل النخبة، وأعنى رجال الفكر والفنانين المبدعين ، ولكننا نلمسه فى فئة التكنوقراطيين والاطباء والمهندسين ، ونميز فى هذا الصدد بجلاء بين انعدام الوعى والانتهازية اننا لا نعنى ـ اذن ـ أولئك الواعين بقضايا مجتمعاتهم ، وبرسالتهم تجاهها ، يسلكون طريقـا انتهازيا لتحقيق مآرب شخصية حينية ، مفضوحة ·

ومن المتناقضات البارزة فى حياة النخبة المثقفة العربية محاولة بعض المنتسبين اليها التوفيق بين المشاركة فى الحياة السياسية والاجتماعية وبين الابداع الفكرى والثقافى ومعطياته ، فقد اتضح بالتجربة ان هذا التوفيق صعب ، فهى معادلة تكاد تكون مستحيلة فى ظروف أكثر الاقطار العربية ، وقد باءت كثير من التجارب بالفشل الذريع ، وبعد كثير من المثقفين العرب عن الحياة السياسية ليس انهزاما ، أو ميلا للراحة ، بل نتيجة قرار واع بعد أن تأكدوا من صعوبة التوفيق ، ومن استحالة أداء رسالتهم تجاه قضايا بلدانهم ، فقد انقلبوا الى بيروقراطيين منفذين لأوامر مراكز النفوذ ، وقد يتهمون زورا وبهتانا بالبرعاجية ·

ان جل المثقفين العرب ملتزمون لقضايا مجتمعاتهم بحكم منحدرهم الاجتماعى ، ووعيهم السياسى والاجتماعى ، ونتيجة لمعطيات البيئة التى يعيشون فيها ، ويتفاعلون معها ، ولكن ما يلوح من عزلة ، أو انكماش ناشىء عن قضية عميقة هى قضية حرية التعبير فى الاقطار العربية ·

انه من الصعب جدا أننتصور فى الاقطار العربية فى المرحلة التاريخية الراهنة أسلوبا ديمقراطيا ، وضمانا لحرية التعبير شبيها بما نعرفه فى كثير من البلدان الغربية ، ولكن الفئات الواعية ضمن النخبة المثقفة تطالب بتوفير ما يمكن أن نطلق عليه « الديمقراطية الداخلية » ، ونعنى داخل المنظمات الشعبية والمؤسسات بعد الاتفاق طبعا على الاختيارات المصيرية ·

وحتى هذه الحرية « الحرية المقيدة » غير متوفرة ، ومن هنا تبدأ أزمة النخبة ، وسوء التفاهم المستمر بينها وبين النظم السياسية القائمة ·

ان القضية الاساسية فى حياة النخبة كانت ، وما تزال علاقتها بالسلطة الحاكمة ، وهى قضية كلاسيكية فى المجتمعات الغربية ، ولكن النخبة تتمتع بحل تعويضى فى هذه المجتمعات حين تتأزم علاقاتها مع السلطة يتمثل فى حرية التعبير·، وهى مفقودة فى مجتمع ثيوقراطى يرزح تحت عبء الحكم المطلق ، ونظرا لانعدام هذا البديل ـ ان امكن القول ان لحرية التعبير بديلا ـ فان المجموعة الواعية من النخبة تلتجىء للعمل

فى الهياكل النقابية ، وفى المؤسسات الثقافية والمهنية آملة امكانية الذود عن الحد الادنى من مبادئها ، وليس من الصدفة ان الترخيص لجمعيات ثقافية يمنع فى بعض الاقطار العربية بحجة حماية أمن الدولة !! وقد آن الاوان للتمييز بين فئات النخبة ، فقد جعلت ظروف موضوعية النظم السياسية تعتمد على الفنيين التكنوقراطيين ، تمنحهم امتيازات كبرى ، وفى صفوفهم نجد النسبة الكبيرة من فاقدى الرؤية والالتزام، ومن جنت عليه ربحهما بشغل بالمظاهر المادية ، ولهو الحياة العصرية ، ولا سيما وقد وفرت لديه وسائلها المادية •

اما الفئة التى احتار الناس فى فهم موقفها فهى مجموعة الاطباء ، فبالرغم من أنها اقدر الفئات على الاستقلال المادى عن السلطة فانك تجد أكثر أفرادها مرتبطين بالنظم القائمة ، بل قل فى طليعة المهللين ، فهل هو ضعف الوعى ، أم هى قضية تحول المهنة الانسانية الشريفة الى حرفة تجارية لدى عدد كبير ، أم ان هنالك أسبابا أخرى ؟

انها ظاهرة تحتاج الى المزيد من التعمق والتحليل •

وهكذا تبقى فئة رجال الفكر هى الفئة القليلة الحاملة لمشعل النضال رغم ظروفها المادية المعقدة . ولا شك ان السبب الرئيسى يعود الى الوعى ، ووضوح الرؤية فى التحليل . وعمق المنطق السببى الذى يتسلح به أكثر أفرادها ، لكن بالرغم من هـذه التناقضات التى لمحنا الى بعضها ، وبالرغم من مظاهر التخلف التى نلمسها فى صفوف النخبة المثقفة العربية ، ومن دورها الهامشى فى المرحلة التاريخية الحاضرة فاننا نؤمن بانها تحاول أداء رسالتها ، وقد تنحصر فى الظروف السياسية الراهنة فى عملية تحديث جذرى للفكر العربى المعاصر ، وتدعيم طرق جديدة فى التفكير والتحليل ، وهى فى حد ذاتها رسالة ذات شأن تتجاوز الحاضر بمشاكله اليومية العويصة ، وتنطلق نحو المستقبل ، فهو عمل مستقبلى طويل النفس لا يستطيع أن يقوم به غير المثقفـين الملتزمـين •



ان هذا القرآن

هداية ورحمة للانسان

سليمان المدني
عضو هيئة التوجيه الـ... بوزارة الشؤون الدينية - البحرين

بدانا فى عدد 40/39 من الاصالة بتاريخ ذى القعدة ذي الحجة 1396 ه نوفمبر - ديسمبر 1976 م بتفسير القرآن فى خطب الجمعة تفسيرا مبسطا نستقيه من اخر ما وصلت اليه التفاسير ، وما صار اليه البحث العلمي - بقدر الامكان - ! . وذلك تعميما للفائدة كما يقال ، وكلمة التعميم هنا فى الصميم يطابق فيها الحال المقال . حيث ان الخطبة نفسها تذاع على أمواج الاثير من الجامع مباشرة ، فيستفيد منها لا جمهور المصلين فحسب ، بل جميع من يستمع الى المذياع داخل البلاد وخارجها ، من أستاذ جامعي يساعد زوجته فى المطبخ وقعد عن صلاة الجمعة ، الى الفلاح ، والراعى ، فى حقل هذا وغابة ذاك ، بفضل هذه الآلة العجيبة التى تسمى الترانزيستور · «الأصالة»

الحمد لله الواحد القهار ، الذى أرسل محمدا الى قوم عتاة عصاة كفار ، فجاءهم بالرحمة المهداة من الله الكريم الغفار، وبالحكمة والموعظة الحسنة ، وبالترغيب والاستبشار ، وبالوعيد والانذار ، وأشهد أن لا اله الا هو العزيز الجبار ، وأشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله النبي المختار ، الذى اصطفاه ربه من صفوة الابرار ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الاطهار ، ورضي الله عن الصحابة من مهاجرين وأنصار ·

أما بعد أيها المسلمون ، فيقول الله فى كتابه الكريم : « **الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يومنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** » ·

(الم) هذا اللفظ مؤلف من ثلاثة أحرف أفتتح الله سبحانه وتعالى به هذه السورة الثانية وهي سورة البقرة ، وهو نظام فريد ، وأسلوب جديد ، جاءت هذه اللفظة على هذا الوضع وتقرأ هكذا · ألف ، لام ، ميم ، بتسكين آخر كل لفظ منها ، ولها أخوات ، من الحروف المقطعات هي أقل تركيب منها ، أو تكبرها فتزيد عليها،فاقتضى الحال أن نوردها على سبيل المثال ، والتوضيح يغني عن السؤال ، وهي مختلفة الاعداد ، فوردت على طريق الافراد ، (ص ، ق ، ن) على حرف ، و (طه ، وطس ، ويس،وحم) على حرفين ، و (ألم ، والر ، وطسم) على ثلاثة أحرف ، و (المص،والمر) على اربعة

خطبة الجمعة ليوم 5 جمادى الثانية 1398 هـ ، 12 مايو 1978 م ·

أحرف،و (كهيعص ، وحمعسق) على خمسة أحرف · فسمى العلماء هذه الالفاظ فواتح لبعض السور من القرآن ، كما سيأتى التوضيح والبيان ، وهي سر من أسرار الرحمان ، وفوق ما يدركه الانسان ، وهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه قال : « لله فى كل كتاب سر ، وسره فى القرآن أوائل السور » ·

وروي ابن الجوزى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الحروف ثناء أثنى الله به على نفسه · وقال الاخفش : (ان الله تعالى أقسم بهذه الحروف على أن هذا الكتاب ، هو ذلك الكتاب المثبت فى اللوح المحفوظ) وورد عن قطرب قوله : (ان الكفار لما قالوا : **(لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)** وتواصوا بالاعراض عنه أراد الله تعالى لما أحب من صلاحهم ونفعهم أن يورد عليهم ما لا يعرفونه ليكون ذلك سببا لاسكاتهم واستماعهم لما يرد عليهم من القرآن فأنزل الله هذه الحروف ، فكانوا اذا سمعوها قالوا كالمتعجبين : اسمعوا الى ما يجىء به محمد عليه السلام ـ فاذا أصغوا هجم عليهم القرآن ، فكان ذلك سببا لاستماعهم وطريقا الى انتفاعهم · وقال المبرد : (ان الله تعالى انما ذكر هذه الفواتح احتجاجا على الكفار ، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور أو بسورة واحدة ، فعجزوا عنه أنزلت هذه الحروف تنبيها على أن القرآن ليس الا من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها وعارفون بقوانين الفصاحة ، فكان يجب أن تأتوا بمثل هذا القرآن ، فلما عجزتم عنه دل ذلك على أنه من عند الله لا من عند البشر) ·

و (ألم)،هذا اللفظ أفتتح الله به سورة البقرة ليشعر أهل الفصاحة والبلاغة من العرب أن الله معجزهم فلن يستطيعوا مجاراة القرآن فى أسلوبه ، وبلاغته واعجازه · روى الترمذى عن عبد الله بن مسعود قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها · لا أقول (ألم) حرف ، لكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف) الحديث ·

وروي أبو ظبيان عن ابن عباس قال : عجزت العلماء عن ادراكها · واحتج المتكلمون على هذا القول وقالوا لا يجوز ان يرد فى كتاب الله تعالى ما لا يكون مفهوما للخلق ، واستدلوا بعدة آيات نذكر بعضا منها اتماما للفائدة · قال تعالى : « **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** » أمرهم بالتدبر فى القرآن ، ولو كان غير مفهوم فكيف يأمرهم بالتدبر فيه · وقال تعالى : « **وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين** » ، فلو لم يكن مفهوما

بطل كون الرسول صلى الله عليه وسلم منذرا به · وأيضا قوله « بلسان عربى مبين » يدل على أنه نازل بلغة العرب واذا كان الامر كذلك وجب أن يكون مفهوما · وقال تعالى : « **هذا بلاغ للناس ولينذروا به** » فكيف يكون بلاغا وكيف يقع الانذار به ، مع أنه غير مفهوم · وقال عليه السلام : (انى تركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله وسنتى) فكيف يمكن التمسك به وهو غير مفهوم ·

اللهم زدنا علما وفهما ، لندرك أسرار القرآن ، ونكون من أهل التقوى والايمان ، يا رحيم يا رحمان ، آمين والحمد لله رب العالمين ·

الخطبة الثانية

الحمد لله الذى جعل القرآن ، شفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، ونشهد أن لا اله الا الله الذى جعل كتابه الكريم (تبيانا لكل شيء)»ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى أكرمه ربه بالرسالة وحمله أداء الامانة ، فبلغ رسالة الاسلام ، ونصح فى الدين لكافة الانام ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وكل من سار على منهاجه الى يوم الدين ·

أما بعد ، فيقول الله تعالى : « **ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** » هذه الاشارة اللافتة للانتباه ، فهي تعظيم وتفخيم لكتاب الله ، انه الكتاب الذى نزل بعضه ولاشك أن هذه الاشارة الى ذلك البعض الذى سبق نزوله فى مكة المكرمة ، قبل الهجرة النبوية ، حيث كانت الدعوة بها سائرة ، والمعارضة من الكفار على أشدها قائمة ، وقد سمي بعض القرآن قرآنا قال تعالى : « **واذا قرىء القران فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون** » وقال حاكيا عن الجن : « **انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا** » وقد وعد الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم عند مبعثه أن ينزل عليه كتابا لا يمحوه الماحى ·

وسورة البقرة نزلت كلها فى المدينة المنورة الا بعض آياتها التى سنوضحها فى حينها ، حيث كانت السورة كلها احتجاجا على اليهود وعلى بنى اسرائيل ، وقد أخبرهم موسى عليه السلام كما قفى الله بعد ذلك بعيسى عليه السلام وكلاهما أخبرا بأن الله سيرسل محمدا صلى الله عليه وسلم وينزل عليه كتابا ، فقال تعالى : « **ذلك الكتاب** » أي الكتاب المتقدم الذى أخبر الانبياء عنه بأنه سينزل على النبي المبعوث من ولد اسماعيل ، ودعوة ابراهيم عليه السلام كانت تشير الى ذلك الكتاب ·

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم » ، انه ذلك الكتاب المثبت فى اللوح المحفوظ بدليل قوله تعالى : « **وانه فى ام الكتاب لدينا لعلى حكيم** » وقال : « **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** » أي فى اللوح المحفوظ واتفق العلماء على أن المراد من الكتاب هو (القرآن) قال تعالى : « **كتاب أنزلناه اليك** » هذا الكتاب المشار اليه ٠

« لا ريب فيه » أي لاشك فيه ، وانتفى عن القرآن الكريم الشك والحيرة لانهما يقسيان الى القلق وعدم الاطمئنان ، وهذا الكتاب حق وصدق « لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » فقد تعهد الله بحفظه وصيانته وجعله « هدى المتقين » انه شفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، وهو نور وكتاب مبين ٠ وقال تعالى : « **قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبينا** » وقال : « **فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا** » وقال : « **ان هذا القرآن يهدى للتى هي أقوم** » انه طريق مستقيم لا اعوجاج فيه ، وهنا يجدر بنا أن نذكر مدى التناسب والترابط بين السورة السابقة (الفاتحة) وبين هذه ، ففى الاولى قال تعالى : قولوا فى دعائكم : « **اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم** » وهنا ذكر الهداية والتقوى ، فالهداية هي التوفيق من الله لعباده ومعرفة طريقه المستقيم الموصل الى اليقين ، فالتقوى حساسية فى الضمير ، وشفافية فى الشعور ، وخشية مستمرة ، وحذر دائم ، وتوق لاشواك الطريق ، طريق الحياة الذى تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات ، والميول والنزعات ٠ اللهم نجنا واعف عنا واهدنا ٠

ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ٠

صفـــات المتقـــين

الحمد لله الذى ألهمنا الايمان ، وجنبنا الالحاد والعصيان ، ووقانا من نزعات الشيطان ، وأشهد أن لا اله الا هو الرحيم الرحمن ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أكرمه بالقرآن ليقارع به أهل الشرك والاوثان ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تمسكوا بالايمان ، ودافعوا عن العقيدة فى كل ميدان ·

أما بعد أيها المسلمون ، فيقول اللهَ تعالى فى كتابه العزيز : « **ألـم ذلك الكتـاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يومنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يومنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** » ·

فالقرآن هو الكتاب المشار اليه ، وهو النبراس المشع بالايمان فى قلـب المـؤمن التقى الذى أخلص للحى القيوم نيته ، واتبع هداه ، واتقى ربه الذى خلقه وسـواه ، وأرشده فهداه الى سواء السبيل ، والتقوى موطنها القلب الطاهر ، وهي التى تهيء الجوارح للعمل الصالح وتدفعها الى كسب الثواب « **والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** » · والمؤمن العاقل المنصف يصدق بأن القرآن من عند الله ، وكـل ما اشتمل عليه من حقائق وأحكام فهي من عند اللـه · وفى القـرآن الهداية الكاملة للذين يستعدون لطلب الحـق ، ويتوقون الضرر وأسباب العقاب ، وهؤلاء هـم الذين يصدقون ، فى حزم واذعان ، بما غاب عنهم ، ويعتقدون فيما وراء المحسوس كالملائكة واليوم الآخر ، لان أساس التدين هو الايمان بالغيب ، ويؤدون الصلاة تأدية كاملـة

---

1) خطبة الجمعة ليوم 12 جمادى الثانية 1398 هـ ·

بالتوجه الى الله فى خشوع حقيقى ، وبهذا الايمان الصادق فى النفس المؤمنة تقام الصلاة ، وتنظم الطاعات ، ويجتاز الانسان مرتبة الحيوان ، الذى يقف ادراكه حيث يحس ، ويشاهد ويتلمس ، أما الانسان ، فانه بفضل الايمان يدرك بطاقة عقله المحدود معرفة خالق الخلق وصانع الوجود ، وبذلك يثبت ايمانه ، ويصحح أعتقاده ويقبل على الصلاة فيعبد ربه فى خشية وخشوع ، وطاعة وخضوع ، فتنحنى الجباه للواحد القيوم ، امتثالا لطاعته ، واشعارا بالخضوع لعظمته ، وعلى قدر سعته ، وكسبه ، يؤدى ما عليه من حق ربه لينال رضاه ، وخيره وبره ، واحسانه : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وعلى قدر الانفاق ، تكثر الارزاق ، وبقدر الثناء على الله والشكر ، يتواصل مدد الخير ، و « لئن شكرتم لازيدنكم » · والذين ينفقون جانبا مما يرزقهم الله به فى وجوه الخير والبر سينالون سعادة الدارين « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » ·

أيها المسلمون : يقول تعالى : « **والذين يومنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** » أي الذين يصدقون بالقرآن المنزل على محمد من الله ، وبما فيه من أحكام وأخبار وقصص وأطوار ، ويعملون بمقتضاه ، ويصدقؤن بالكتب الالهية التى نزلت على من سبقوا رسول الله من الانبياء والرسل ، كالتوراة والانجيل وغيرهما ، لان رسالات الله واحدة فى أصولها ، وأهل الايمان يتميزون عن غيرهم ، اذ يعتقدون اعتقادا جازما بمجىء يوم القيامة وبما فيه من حساب وثواب وعقاب ·

وخلاصة القول أن صفات المتقين ثلاثة : **أولا** ، الايمان بالغيب : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » · **ثانيا** : المحافظة على الصلاة وأداؤها فى أوقاتها بنية الاخلاص لله فى فعلها واستيفاء شروطها : « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » وانها تنهى عن الفحشاء والمنكر · **ثالثا** : الانفاق فى سبيل الله : « **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم** » ·

ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الابرار ·

الخطبــة الثــانيــة

الحمد لله الحليم الغفور ، الذى أخرج الناس من الظلمات الى النور ، نحمده حق حمده ونشهد أن لا اله غيره ونشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين آمنوا بكل ما جاء به من عند ربه ·

أما بعد ، فيقول تعالى فى كتابه الكريم : « **والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** » ·

أيها المسلمون : بعد أن بين الله سبحانه وتعالى الصفات الثلاث للمتقين التــى يجب على المسلمين أن يؤمنوا بها ، كما آمن المتقون بها وجزموا بصحتها ، وهـــي الايمان الكامل بالغيبيات ، وتأدية ما فرض الله من الصلوات ، وبذل الاموال بسخاء على المشاريع الخيرية والمؤسسات ، التى يـدر نفعها ويعـود خيرها على الافـراد والجماعات ، ذكر الله بعد ذلك الصفة الرابعة للمتقين ، وهي قوله : « **والذين يومنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك** » أي يجب الايمان بالقرآن المنزل من عند اللــه على رسول الله ، بكل مــا تضمنته السور والآيــات ، كما يجب الايمان بالكتب السماوية كالانجيل والتوراة ، بغض النظر عما وقع لها ، بعد أصحابها ، حيث تناولتها يـــد الزمان ، والحاد الانسان بالتزييف ، والنسخ والمسخ ، والتحريف ، « **يحرفون الكـلم عن مواضعه** » أي يصرفونه لغير وجهه ·

والايمان بهذه الكتب هو الاطمئنان برعاية الله لخلقه ، وببعثات أنبيائه لامـــم الارض ، ليثبتوا دينه ، وينشروا يقينه ، وهديه ونوره بين العالمين ، وقد جاءت رسالة محمد عليه السلام بنور الاسلام ، تدعو الى السلام ، والاخاء والوئام ، والتضامن والتعاون بين الانام ، وان أمتنا تعتز بالقرآن ، وتؤمن به كل الايمان « وبالآخرة هـم يوقنون » · فلم يبق للمسلمين شك ، أو انحلال فى العقيدة أو تفكك ، فقد تـم ايمانهم بربهم وازدادوا يقينا : « **انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلـت قلوبهم واذا تليـت عليهم آيــاته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون** » فقد استيقنوا أن الآخرة دار قـرار واستقرار ، وأن الدنيا ما هي الا سفينة أسفار « **وللآخرة خير لك من الاولى ولســوف يعطيك ربك فترضى** » ثم يقول تعالى فى أول السورة التى بدأنا تفسيرها : « **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** » فالمتقون هم الفائزون عند الله ·

أيها المسلمون ، بعد أن ذكر الله الصفة الخامسة للمتقين ، الذين آمنوا بعــدل الله الذى بيده الثواب وبيده العقــاب ، وبيده المغفــرة انه الواحد التواب ٠ جــاءت الاشارة الى المتقين الذين عرفهم بسماتهم وصفاتهم ، فهؤلاء هم الذين أنعم الله عليهم انهم الفائزون بما قدموا من صالح الاعمال ، فكان سعيهم حميدا ، حين آمنوا بــكل ما أخبر الله به ، وبتأدية فرائضه ، وبما أنفقوا من مال الله الذى استخلفهم عليه ، كما آمنوا بالقرآن وبكل مــا أنــزل الرحمان ، واستيقنوا بالوقوف أمــام الواحد الديان : «ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا » « يوم تجد كل نفس ما عملت من خــير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » ٠ وهنا يجنى المتقون ثمرة أعمالهم ويحظون بالرضا والرضوان ، لانهم كانوا يمتثلون لــا أمر اللــه بــه ، ويجتنبون ما نهى الله عنه ، بدافع نيل الثواب ، والنجاة من العقاب ٠

ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، يا عزيز يا غفار ، يا من رحمته أوسع من عقابه ، وتسع كل شىء فى ملكه ٠ « **ربنا انك من تدخل النــار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار** » ٠

ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ٠

عباد الله : « ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » ٠

سليمان المدني

الذكرى الاربعينية لوفاة الشيخ محمد الشاذلى بن القاضى

عبد الرحمن شيبان
المفتش العام بوزارة التربية

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الاخ الوزير ،

أيها السادة •



لقد نكبت الجامعة الزيتونية فى السنوات الاخيرة نكبات متتالية ، بوفاة مجموعة من أساطينها ، نذكر منهم أصحاب الفضيلة العلماء أساتذتنا اجلاء : عبد العزيز جعيط ، الفاضل ابن عاشور ، محمد الطاهر ابن عاشور ، محمد البشير النيفر ، المختار بن محمود ، وأخيرا الفقيد المحتفل بذكراه الاربعين ، العالم العامل الاستاذ محمد الشاذلى ابن القاضى ، عليه وعليهم رضوان الله أجمعين •

(*) نص الكلمة التى ألقاها الاستاذ عبد الرحمن شيبان المفتش العام بوزارة التربية بمناسبة الذكرى الاربعينية لوفاة فضيلة الاستاذ محمد الشاذلى ابن القاضى ، التى اقامها المركز الثقافى الاسلامى يوم الاربعاء 78/4/26 بالعاصمة .

والشيخ محمد الشاذلي ابن القاضي، الذي نعته الينا أنباء الجمهورية التونسية الشقيقة في اليوم السابع من شهر مارس 1978 م ، شخصية علمية اسلامية بارزة ، كان لها أثر كبير في حياتنا الفكرية ؛ فكل كلمة مقتضبة تقال ، في مناسبة كهذه ، قاصرة عن الاحاطة بحميد خصاله وجلائل أعماله .

لهذا أعتذر عما أعتبره قصورا فيما أقوله عنه الليلة ، موجزا حديثي في بدايته عن حياته العامة ، مركزا بعد ذلك على ما قدمه للجزائر وأبنائها من خدمات يذكرها له التاريخ بمزيد من التقديد والاكبار .

حياتـــه العامـــة :

أيها السادة ، بوفاة العلامة الشيخ محمد الشاذلي ابن القاضي ، انتهت حياة صرفت كل لحظة منها في التفكير في شؤون المسلمين ، والعمل لاصلاح أحوالهم ، وتعليم أبنائهم ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم . وحياة كهذه تستحق الدرس الشامل العميق، للافادة منها والنسج على منوالها .

لقد عاش الفقيد للعلم ينشره ، وللاسلام ينصره ، وللعربية يحميها من كيــد الكائدين وتنكر المتنكرين ؛ فما وهن له عزم ، ولا ضعفت له ارادة ، ولا فت في عضده طغيان الاجنبي الدخيل ، ولا تثبيط المتخاذل الذليل . وهذا شأن أصحاب المبادىء الذين آمنوا بالحق فحالفوه ، وكفروا بالباطل فقاوموه .

لا يغريهم نعيم الحياة ودعة العيش ، وسط مجتمع من البؤســاء الذين تسلط الاستعمار على خيراتهم فنهبها ، وعلى أجسادهم فأهزلها ، وعلى أرواحهم فأخمدها ، وعلى أخلاقهم فشوهها ، وعلى عقولهم فاستلبها أو حجرها ؛ فهم بين منبهر ببريــق حضارة لم يساهم في صنعها ، ومتحجر في كهوف الانحطاط قد استطاب العيش في ظلماتهــا .

لم يطمئن الفقيد العظيم لهذه الحالة المادية والمعنوية المتدهورة التى انتهى اليها أمر المسلمين ، فثار عليها مستلهما فى ثورته مبادىء الاسلام وأسسه ، كما فهمها السلف الصالح ، لا كما شوهتها عصور التدهور والانحطاط · ومؤمنا بأن تطهير العقيدة من الجمود والانحراف ، وتنوير العقول بهدى الشريعة وعلوم الحياة ، وانقاذ الارواح من الهوة السحيقة التى انحدرت اليها ، هى المنطلقات الصحيحة للتطـور المنشود للعرب والمسلمين ...

ولم يكن هذا الايمان حبيس نفس الفقيد ، بل تجسد فى نضاله المستميت ، ونكرانه للذات ، وتضحيته باللذات ، حتى شهد بلادا عربية واسلامية كبيرة تظفر بحريتها واستقلالها · غير أن مجرد خروج الاستعمار من البلاد المبتلاة به ـ لم يكن فى نظره كافيا ؛ فالغاية المنشودة لا تتحقق الا بتطهير العقول والارواح من رواسبه ، وتخليص الاقتصاد من سيطرته وتوجيهه · وذلك لا يتم الا بامتلاك القوة الماديـة ، والسيطرة على العلم والتقنية وتوجيه نتائجهما وفق منهج العقيدة الاسلامية ، ووضعها فى خدمة غاياتها الانسانية السامية · كما أشار فقيدنا الى ذلك فى محاضرته التى ألقاها فى الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بالجزائر سنة 1972 م ·

والفقيد فى منطلقاته الفكرية هذه يلتقى مع أقطاب الحركة السلفية فى وطننا ، وفى مقدمتهم العلامة الجليل الامام عبد الحميد بن باديس الذى يعتبر ثمرة مـن ثمار الجامعة الزيتونية وامتدادا للتيار السلفى فيها ·

ميـــادين جهـــاده :

ان العلامة محمد الشاذلى ابن القاضى شعلة متوهجة من النشاط ، تعددت ميادين نشاطه وتنوعت أساليبه ، وان كان هدفه واحدا هو تحرير العرب والمسلمين ·

فقد ناضل بقلمه فى « المجلة الزيتونية » التى أنشأها مع نخبة من خيـــار الزيتونيين سنة 1935 م ، وكان مديرا لها ·

وساهم فى الحركة السياسية مساهمة بارزة ، أهلته لعضوية الديوان السياسى للحزب الحر الدستورى التونسى ، فى أحلك فترات الاحتلال ، وكان محل تقـدير

من جميع السياسيين على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم ، وذلك لما امتاز به من اخلاص في العمل وصلابة في الحق ٠

اصـــلاح التعليـــم الزيتوني :

وكان من الاركان الاساسية التي اعتمد عليها الامام محمد الطاهر ابن عاشور ، مدير الجامعة الزيتونية ، في اصلاح التعليم الزيتوني ، الذي استهدف تطويـــر البرامج ، وتنظير شهادات الجامعة الزيتونية بشهادات المؤسسات العلمية بفرنسا ، وعن هذا الاصلاح يقول العلامة المرحوم الاستاذ محمد البشير الابراهيمي في جريدة البصائر في عددها الخاص بمعهد ابن باديس والصادر في شهر جويلية سنة 1948 ، محددا شروط هذا الاصلاح ودوافعه :

« لم ير جامع الزيتونة في عهوده الاخيرة أزهر من هذا العهد ٠ ولم ير في الرجال المسيرين له رجلا أقدر على الاصلاح وأمد باعا فيه من شيخه الحـــالي ٠ واذا كان الاصلاح يسير ببطء فما الذنب ذنبه ، وانما الذنب لطبيعة الزمان والمكان ، وضعف المقتضيات وقوة الموانع ٠ وحسبه أنه حرك الخامد ، وزعزع الجامد ، وأجال اليـــد المصلحة في الادارة ، وفي كتب الدراسة ، وفي أشياء أخر » ٠

« ٠٠٠ والحق أن في جهاز التعليم بجامع الزيتونة خللا يحتاج الى الاصلاح ، وعللا يجب أن تزاح ، ونقائص يجب أن تعالج ، وتوافه من النظم يجب أن تلغى » ٠

« ٠٠٠ فاذا اطمأن بعض أصدقائنا واخواننا من علماء الزيتونة على ابقاء ما كان على ما كان ، فليعلموا أن وراءنا من الزمن سائقا عنيفا حطمة ، يستحث البطاء ، ولا يغض من أعنة العجال ، وان بين أيدينا ودائع من شباب متطلع الى الكمال ، تواق الى السبق ، حريص على دقائق عمره أن تنفق الا فيما ينفق ٠ وهو يريد أن يكون كزمنه وأبناء زمنه ، وزمنه ثلاثة : جد واتقان ونظام ٠ وأبناء زمنه أحالهم العلم

عقبان جو (1) وغيلان دو (2) · وفرضت عليهم الحياة أن يأخذوا الكثير من العلم ، فى القليل من الوقت ، وأرتهم مصداق ذلك حتى لا يرتاب بمرتاب » ·

« ··· وليعلموا ان خصوم الاسلام فى ازدياد ، وان سير الالحاد فى اطراد ، وأن العلوم الغربية زاحمت العلوم الاسلامية على نفوس شبابنا فافتتنوا ، وأن ضرائر العربية من اللغات الاوروبية يتبرجن تبرج الجاهلية الثانية ، وقد زاحمنها على ألسنة شبابنا فافتتنوا ، وان التعليم فى كلياتنا المشهورة بوضعه الحالى ، لا يكفل لنا سد أبـواب هـذه الفتـن » ·

« ··· ان الاصلاح المرجو لجامع الزيتونة لا يبلغ مداه الا اذا توفرت فيه ثلاثة شروط : الاستقلال والمال والرجال » ·

« ··· وأما الرجال فان فى الزيتونة رجالا لو تعاونوا وسلموا من داء المنافسة على الرياسة ، لحققوا الآمال فى الاصلاح ، ولعجلوا به ، وقد كانوا ينتظرون القائد الحازم فقـد وجـدوه ··· » ·

مـــع الجـزائــر :

هذه بعض الجوانب من الحياة العامة للفقيد ، أما فيما يتعلق بخدمته للجزائـر وأبنائها فيتمثل فى مده يد العون للطلبة الجزائريين الزيتونيين فى فترة يصفها أستاذنا العلامة المرحوم الشيخ العربى التبسى فى عدد البصائر الخاص بمعهـــد ابن باديس المشار اليه آنفا فيقول :

---

(1) عقبان : ج ـ عقاب وهو : الصقر الذى يصيد ولا يصاد · ويشير به الابراهيمى الى الاسراب من الطيارين المتقاتلين فى الجو أثناء الحرب العالمية الثانية بين الالمان والحلفاء .

(2) غيلان : ج ـ غول . وهى : الحيات أو كل ما اغتال الانسان فاهلكه من جـــن أو شيطان أو سبع .

والدو : الفلاة الواسعة . والاشارة هنا الى جيش رومل الالمانى ومنتغمرى الانجليزى حين اشتبك جيشاهما فى صحراء العالمين .

« والامة الجزائرية لا يقال عنها : انها فى أيام احتلال بلادها لم تؤسس المؤسسات · ولم تقدم للانسانية فى هذا الوطن خدمة عقلية أو دينية أو اجتماعية· بل يقال عنها : شر من ذلك اذ هى قد عوقبت شر عقوبة عرفها تاريخ العصر الحديث: فقدت ما بين يديها ، وسلب منها ما أنشأه الاوائل لهذه النواحى وما أسسوه لخدمة العلم قبل الاحتلال · اغتصبت أوقافها ، ونزعت منها مساجدها ، ومنعت حق التصرف فيها ، وفرضت عليها قوانين من شر ما يعرفه البشر فى عالم التشريع الانسانى ، فالتعليم الدينى والدنيوى سلطت عليه قوانين لا انسانية فيها ، وكلف بسنها وتنفيذها أولئك الذين كلفوا بتشريع وتنفيذ قوانين الجرائم · وبات تعليم العلم والقرآن فى الجزائر فى عداد الجزائر · يحاكم معلم القرآن والعلم ومحارب الامية ، من غير رخصة من الحكومة ، مع القتلة والمجرمين (بقوانين واحدة ، وفى محكمة واحدة وعلى يد قاض واحد ، وفى يوم واحد · وكم لهذه القوانين من ضحايا أدمت القلوب » ·

مع أبنائنا فى الزيتونة :

وفى هذه الظروف القاسية أضطر الجزائريون ـ محافظة على شخصيتهم العربية الاسلامية ـ أن يتوجهوا الى أى مكان تسير لهم الاتجاه اليه لتعلم العلوم العربية والاسلامية · وكانت تونس الشتيقة أوفر البلاد العربية حظا فى استقبال هؤلاء الجزائريين الوافدين على زيتونتها المباركة ، يقتبسون من نورها ما يغذى نفوسهم ، وينير عقولهم ، وقد وجدوا من الفقيد ، باعتباره مديرا لمدارس سكنى الطلبة ، كل رعاية وعناية ، حيث فتح لهم المدارس يسكنونها ، وساعدهم على اتمام اجراءات الالتحاق بصفوف الدراسة ·

مع جمعية العلماء :

ونظرا لحبه للجزائر وتعلقه الشديد بها فقد أسندت اليه « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » مهمة تمثيلها بالقطر التونسى الشقيق ، فكان بهذه الصفة

مشرفا على « جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين » بتونس يوجه نشاطها ويرعاه ، ويساعد أعضاءها بالنصح ومختلف أنواع المساعدة ٠

وبهذه الصفة أيضا اشترى دارين لسكنى الطلبة الجزائريين باسم « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » ، وتشاء المصادفات أن يدفع العقيد الشهيد عميروش ـ المشهود له بحب العلم ومساعدة طلابه ـ ما تخلف بذمة الجمعية من أقساط احدى الدارين ، وهى « المدرسة الباديسية » ، وذلك قبيل استشهاده بأمد قصير ٠

مع معهد ابن باديس :

ولما قطعت جمعية العلماء أشواطا واسعة فى تنفيذ أهدافها المرحلية فى تنظيم التعليم ، بانشائها مدارس ابتدائية عربية فى معظم أنحاء البلاد ، فكرت فى انشاء معهد ثانوى بعاصمة العلم قسنطينة ، تواصل به رسالة ابن باديس التعليمية فى الجامع الاخضر بقسنطينة ، والتى اضطلع بها ـ بعد وفاته ـ المرحوم الشيخ العربى التبسى بمدينة تبسة ، وتتوج به مجهوداتها فى مجال التعليم الابتدائى وتستقبل فيه الراغبين فى مواصلة دراستهم من تلاميذ المدارس الابتدائية الحرة ، وغيرها من المؤسسات القرآنية والعلمية بالجزائر ، بل وحتى من بعض البلاد الافريقية ، حيث وفدت على المعهد بعثات من بعض بلاد افريقيا ٠ ورأت الجمعية أن تضمن لطلبة المعهد الدراسة المنتظمة فى مراحل التعليم العليا ، وفى مختلف التخصصات من ناحية ، وتدعم روابط الاخوة بين الجزائر وغيرها من البلدان العربية من ناحية أخرى ٠ فعملت على ربط المعهد بالجامعة الزيتونية أولا ، على أن يرتبط بغيرها من الجامعات العربية فى مرحلة ثانية ٠ ولتحقيق هذا الهدف وجه رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشيخ محمد البشير الابراهيمى فى شهر جوان سنة 1947 رسالة الى جمعية الطلبة الزيتونيين الجزائريين ـ التى كان لى شرف رئاستها آنذاك ـ يعلمنا فيها بأن جميع التحضيرات قد تمت ليفتح معهد (عبد الحميد ابن باديس) بمدينة قسنطينة أبوابه فى شهر أكتوبر من السنة نفسها ٠ وطلب الينا أن نطلب من مدير الجامعة الزيتونية فضيلة العلامة محمد الطاهر ابن عاشور الاعتراف بالمعهد كفرع من فروع الزيتونة المباركة ٠

ولتنفيذ هذه المهمة الدقيقة والعظيمة أقامت الجمعية ـ بناديها الكائن بنهج عبد الوهاب بتونس ، وباتفاق سابق مع الشيخ المحتفل بذكراه الاربعين ـ حفلة تكريم للامام محمد الطاهر ابن عاشور بصفته رئيسا شرفيا لها ، حضرها معه ، بالاضافة الى الشيخ الشاذلى ابن القاضى ـ مدير المدارس ـ بعض أعضائه : الشيخ على النيفر ، نائبه ، والشيخ محمد المختار بن محمود ، والشيخ الفاضل ابن عاشور . وفى هذه الحفلة التكريمية ـ فى ظاهرها ـ عرضنا على مدير الزيتونة رغبة جمعية العلماء ؛ فأكبر هذه المبادرة العلمية ، واعرب عن اغتباطه الشديد بأن يعترف بمعهد يحمل اسم أحد تلاميذه الاصفياء ـ الامام عبد الحميد بن باديس ـ كفرع للجامعة الزيتونية ، فقدمنا له شكر الجزائر العربية المسلمة على هذه الخطوة المباركة ، وسارعنا ـ بعد انتهاء الحفلة التى أقيمت صباحا مباشرة ـ الى تسجيل هذا الاعتراف فى بلاغ سلمناه الى الجريدتين المسائيتين : « النهضة » و « الزهرة » ؛ لنباغت به الاقامة العامة الفرنسية فى نفس المساء ، وجعلناه تحت عنوان : « جمعية الطلبة الزيتونيين الجزائريين تحتفل برئيسها الشرفى : فضيلة مدير الجامعة الزيتونية » حتى نغالط الاقامة العامة ونفوت عليها فرصة التحرك السريع لابطال الاعتراف ، فنضعها بذلك أمام أمر واقع لا يسعها الا اقراره .

وقد نجحت الخطة التى رسمناها بمساعدة العلامة ابن القاضى وتحت اشرافه .

وبعد سنة من الدراسة بالمعهد الباديسى وقع حدثان هامان : أولهما اصدار جريدة (البصائر) عددا خاصا بالمعهد ، قدم فيه رئيس جمعية العلماء الى الامة المعهد وأساتذته وتلامذته ... وكان فى مقدمة من خصهم بكلمة تقديرية ، بهذه المناسبة ، مدير الجامعة الزيتونية : الامام محمد الطاهر ابن عاشور ، وفقيدنا العظيم الاستاذ محمد الشاذلى ابن القاضى ، تنويها بدوره فى الاعتراف بالمعهد ، واشادة بفضله على الجزائر وأبنائها . والحدث الثانى : ايفاد « جمعية العلماء » وفدا الى تونس لتمثيل المعهد فى احتفالات الزيتونة الرسمية بنهاية السنة الدراسية ، يتألف من الاساتذة : عبد المجيد حيرش ، أحمد حسين ، على المغربى وعبد الرحمن شيبان . وقد خص

مدير الجامعة الزيتونية فى خطابه ، بهذه المناسبة ، المعهد بكلمة أبدى فيها اعتزازه بميلاد فرع جديد للزيتونة بالجزائر ، ورحب بالوفد الجزائرى أحر ترحيب ٠

وهكذا ازدادت الصلة بين الجزائر وتونس وغيرها من البلاد العربية الشقيقة توثقا ، وفى ذلك يقول الاستاذ محمد خير الدين ، نائب مدير معهد ابن باديس وأمين مال جمعية العلماء ، فى العدد الخاص بالمعهد : « وما ارتباطه بجامع الزيتونة ـ كعبة العلم بالمغرب العربى ـ من يوم افتتاحه ، الا خطوة أولى لتحقيق وحدة العروبة بالعلم والعمل ٠٠٠ وسيرتبط بمعاهد الشرق العربى ٠ فتتم الوحدة وتتجلى فى أجلى مظاهرها» ٠ ويزيد العلامة الابراهيمى هذه الفكرة تاكيدا فى العدد نفسه فيقول :

« والمعهد ـ وان كان فرعا عن جامع الزيتونة لا يخرج عن برامج أصله فى الجملة ، ولكنه قد يزيد عليها لفائدة محققة أو راجحة ، وهو ينوى التوسع فى مبادىء علوم الحياة وينوى توجيه النوابغ فيه الى استكمال معلوماتهم فى جهة أخرى غير الزيتونة على نفقته وتحت اشرافه ورقابته ، ليأخذوا من العلوم التطبيقية بنصيب فينتفعوا وتنتفع الامة بهم » ٠

وقد تحققت هذه الاهداف بربط المعهد علاقاته وتوثيق صلاته بجامعات القاهرة والاسكندرية ودار العلوم والازهر وعين شمس بمصر ـ وجامعة دمشق ـ بسوريا ـ وجامعة بغداد بالعراق ـ والسعودية والكويت والاردن والمغرب وليبيا ٠ ومن طلبته الذين أتموا دراساتهم العليا بهذه الجامعات عدد كبير يقدمون اليوم خدمات جلى للوطن فى شتى المجالات ٠

مع الثورة الجزائرية المسلحة :

وفي أثناء الثورة الجزائرية المسلحة كان المرحوم ابن القاضى على صلة بكبار مسؤوليها، ينصحهم ويساعدهم بكل ما يستطيع ٠ وعند ما أعلن عن تأليف الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية احتفل بهذه المناسبة ؛ فأقام ـ بداره بالمرسى ـ مأدبة دعا اليها رئيس الحكومة والشيخ الابراهيمى وبعض المسؤولين فى الثورة ٠ وحضرها ـ من الجانب التونسى الاساتذة : محمد الطاهر ابن عاشور ، ومحمد المختار بن محمود ،

وعبد العزيز جعيط ، ومحمد الفاضل ابن عاشور . ودار الحديث أثناء المادبة حول حاضر الثورة الجزائرية ومستقبلها بعد حريتها واستقلالها . وكان الفقيد فرحا بهذا اللقاء فرحا شديدا ، وقد أعلن فيه عن ثقته المطلقة فى انتصار الجزائر المحقق باذن الله ... ومن بين ما أوصانا به الفقيد بمحضر المرحوم الشيخ نعيم النعيمى – أثناء الثورة – : العمل على اقامة « مجلس اسلامى أعلى » فى الجزائر بعد استقلالها، وقدم لنا قانونا أساسيا لهذا المجلس ، آملا أن لا تقع الجزائر فيما وقع فيه غيرها من البلاد الاسلامية المستقلة حديثا ، من تبعية واستلاب .

مع الجزائر المستقلة :

ولما استقلت الجزائر وأنشىء المجلس الاسلامى الاعلى ، دعت وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية الراحل العظيم لالقاء محاضرة فى الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بالجزائر سنة 1976 ، ودارت محاضرته حول القضية التى جند حياته لخدمتها وهى « الاسلام فى حاضره ومستقبله » .

ولا يفوتنا فى نهاية هذه الكلمة – أن نطلب من العلماء المسلمين – فى مشرق الارض ومغربها – مواصلة رسالتهم فى خدمة أوطانهم عملا بقوله تعالى : « **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخيرويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** » .

ونأمل أن يتعزز التعليم الاسلامى بالجزائر حتى يكون تطورها فى اطار الاصالة . وأن يدعم المجلس الاسلامى الاعلى صلاته بالمنظمات الاسلامية لخدمة الفكر الاسلامى ومسايرة ركب الحضارة .

ورحم الله الفقيد الجليل محمد الشاذلى ابن القاضى ، وجازاه أحسن الجزاء على جهاده فى سبيل العلم والعروبة والاسلام .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمـــد الشـــاذلى بن القـــاضى
العالـــم المصلـــح

أحمد حمــانى
رئيس المجلس الاسلامى الاعلى
الجــزائر



نعت الينا أخبار تونس الشقيقة فقيدا عزيزا علينا ، ورجلا عظيما من رجالنا ، وأبا روحيا من الذين لهـم حق التربية على اجيالنا : انه أستاذنا الجليل الشيـخ محمد الشاذلى بن القاضى الاستـاذ بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الـدين ، وصاحب (المجلة الزيتونية) وعضو رابطة العالم الاسلامى بمكة المكرمة رحمه الله . وافته المنية بتونس يوم الاثنين 26 ربيع الاول 1398 هـ (6 مارس 1978 م) فعزمنعاه على كل من يعرف فضلـه وايمانه العميق وصلابته فى الحق ، ونشاطه فى خدمة الاسـلام .

(*) نص الكلمة التى ألقاها الاستاذ أحمد حمانى رئيس المجلس الاسلامى الاعـلى بمناسبة الذكرى الاربعينية لوفـاة فضيلة الاستاذ محمد الشاذلى بلقاضى ألتى أقامها المركز الثقافى الاسلامى يوم الاربعاء 1978/04/26 بالعاصمة .

انه يودعنا بعد حياة طويلة ، مليئة بجلائل أعمال ، والسعي المتواصل فى خدمة الامة والنفع العام ، والنصح لله ولرسوله ولكتابه وللائمة المسلمين وعامتهم · فلم يكن يدخر وسعا ولا يني ، ولا يتوقف أمام الصعاب ولا ينثنى ·

ولد رحمه الله من عائلتين كريمتين : فأبوه هي العلامة الشيخ محمد بن القاضى ، قاضى تونس ، وأمه من آل النيفر المعروفين بالشرف والعلم ـ بمدينة تونس عام 1318 هـ (1901 م) ورباه أبوه فاحسن تربيته · وانخرط فى سلك الجامعة الزيتونية عام 1333 هـ (1915 م) وتحرج منها عام 1340 هـ (1922 م) وكان من أساتذته العلامة الشيخ محمد ابن يوسف ، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور شيخا الاسلام،والشيخ محمد النخلى ، والشيخ بلحسن النجار والشيخ محمد بن الصادق بن القاضى والشيخ محمد العزيز جعيط الوزير السابق والشيخ محمد البشير النيفر قاضى الجماعة ، وما منهم الا كان الامام الركن والمحقق المتقن ، والعلامة المفتن ، وابتدأ التدريس بالجامعة وهو فى شبابه متدرجا من درجة (معاون) عام 1346 هـ (1928 م) الى درجة أستاذ عام 1372 هـ (1953 م) وكانت هذه الدرجة بالزيتونة عزيزة لا ينالها الا الفطاحل المبرزون · وبهذه الصفة دخل الجامعة التونسية ليدرس فى كلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين · حتى وافاه الاجل المحتوم ·

عرفت الاستاذ فى ميدان العلم والعمل منذ امد طويل ، عام 1354 هـ (1935 م) ، وكان أستاذنا بالزيتونة ، فتلقيت منه دروسا نافعة فى العربية وكان رحمه الله يبذل مجهوداته الكبيرة فى ايصال النفع لابنائه بمختلف الطرق ، محبا لهم ، مشفقا عليهم ، عظيم الحلم عن اخطائهم وهفواتهم ، كريما معهم جميعا يشجع المتفوقين ويثيبهم ، ويأخذ بيد الضعفاء ويرشدهم ، فكانوا يجلونه ويقدرونه ، ويحلونه من أنفسهم وقلوبهم المحل الرفيع · ذلك انه لم يكن من الذين يكتفون فى تلقين طلابهم بالقواعد الجافة ، ولكنه كان يتجاوز بهم حد تلقين القواعد الى التربية والتهذيب وحسن التوجيه ، مما يجعل الطالب يحس من أستاذه انه أيضا رفيق له ، وصاحب يستأنس بصحبته فيقبل نصحه ، ويفتح له فؤاده ، وتجلب خصاله الحميدة فى أروع مظاهرها يوم تولى ادارة مساكن الطلبة وما فى ذلك من مشاكل كان يجد لها حلولا ترضى جميع الاطراف وتريح الطلبة ·

لقد كان الاستاذ محمد الشاذلى بن القاضى ـ كأحد علماء الزيتونية ، أو الجامع الاعظم ـ ممن يحسون بعظم المسؤولية التاريخية الملقاة على عواتقهم : انها امانة

الاجيال ، وهم حلقة الاتصال بين الاجيال الماضية والاجيال المقبلة ، ولا يجوز ان ينسى المدرسون بالزيتونة انهم جالسون مجالس ابن عرفة ومشائخه وتلاميذه ورفاقه · وكل من جاء بعدهم الى عصرنا ، لقد جلس برحاب الجامع الاعظم للتلقى أو الالقاء امثال ابن خلدون ، والبرزلى ، وابن عبد السلام والابى ، والغبرينى ، فى القديم وآل بيرم ، وآل ابن عاشور ، وابـن أبى الضياف ، وبوحاجب ، وآل النيفر وآل ابـن مـراد فى الحديث · ولقد ادركنا فى الزيتونة طائفة المحافظين المتزمتين المشفقين من كـل تغيير لا يرون ان يلحق بالجامعة الزيتونية ، أو بالكتب المدروسة فيها أو بالبرامج المتبعـة فى التدريس أي تبديل أو تغيير.وكان فيهم المحب للزيتونة والمشفـق عليها ، الخائف أن تتجاوزها الاحداث ، وتحل بها المصائب اذا لم يسع أهلها ـ بانفسهم ، فى الاصلاح والتجديد ، وتطـوير أنفسهم بأنفسهم ، وتجديد مناهجهم وتأليف الكتـب الحديثـة ، والتزود بكل جديد مفيد ، مـع المحافظة على الـروح الاسلامية القومية أصيلة نقيـة سليمة بعيدة عن كـل انحراف .

وكان أستاذنا رحمه اللـه من هذه الطـائفة المتبصرة المدركة ، فكان مـن رجال الاصلاح وحزبه واعوانه ، ومن شيعة رواده ، المستجيبين لدعوته بل من دعاته ، فكان على رأس فتية رفعوا رأس الزيتونية عاليا ·

وأذكر فى هذا الميدان أن اليقظة كانت قد عمت اثناء السنوات السابقة للحـرب العالمية الثانية وخصوصا منذ عام 1933 م ، وأرتفع صوت العلماء والزعماء والمفكرين والكتاب فى كل مكان من العالم الاسلامى شـرقا وغربا · ولم يكـن لعلماء الزيتونة صوت خاص بهم ، كان تلاميذهم يملأون السهل والجبل ، بتونس وبالجزائر ، يعمرون الوظائف السياسية والادارية والاجتماعية ، ترتفع أصواتهم بالخطب المهيجة المثـيرة والمقالات القيمـة فى الصحف والمجلات تعـالج أمـراض المسلمين ، وتكشـف أدواء مجتمعاتهم ، وتصف الدواء النافع لسلامتهم وبقى صوت شيوخهم خافتا ، فعـز هذا الوضع على ابناء الزيتونة الاحرار ، وخريجيها الاوفياء ، من العلماء المصلحين من التونسيين والجزائريين ·

وفى عام 1354 هـ (1936 م) وجه الاستاذ عبد الحميد بن باديس رحمه اللـــه فى جريدة البصائر ، العدد الاول من السلسلة الاولى نداء الى علماء الزيتونة يذكـرهم فيه بان علماء مصر ، وعلماء المغرب ، وعلماء طرابلس (ليبيا) وعلماء الجزائر كلهم قد ارتفعت أصواتهم بالاصلاح الاسلامى (وما بقي ساكتا الا جامع الزيتونة ، وقـد

ارتفعت الشكوى فى الصحف التونسية ـ هذه المرة الاخيرة ـ من بلدان عديدة فى القطر التونسى الشقيق بالبدع والمنكرات · وبقي علماء الزيتونة واجمين ساكتين كان الامر لا يعنيهم ثم : (**اننا ندعوكم بكلمة الله الى الصدع بالحق وانقاذ المسلمين**)

ولم يذهب هذا النداء صرخة فى واد ، أو نفخة فى رماد ، بل كان له اثر استحسان عظيم فى أوساط العلماء الشبان أعوان الاصلاح وانصاره وعلى رأسهم الفقيد الكريم ، والاستاذ العلامة الشيخ المختار بن محمود والعلامة الاستاذ محمد الهادي بن القاضى وغيرهم فتحركوا للعمل المفيد ، وكانت ثمرته الاولى (المجلة الزيتونية) ·

لقد كان الوسط الزيتونى ـ الى ذلك العهد ـ يتسم بالتزمت والمحافظة ، وكثير من شيوخه لا يرون للطالب الاشتغال بقراءة الجرائد ، والاهتمام بمطالعة مقالاتها ، لانها تشغله عن دراسة الكتب الجافة المقررة ، وتعوقه عن تحصيل العلوم النافعة : وكان القيمون بالجامع يراقبون الطلاب ، ولا يسمحون لهم بفتح صفحات جريدة فى قلب الجامع الاعظم ـ فاصدار (مجلة) من علماء زيتونيين رسميين ، مؤيدة من شيخ الجامع الاعظم ، ومن شيوخ الاسلام والعلماء الاعلام ، كان بحق حدثا جديدا ، وكسبا عظيما للاصلاح ، وكان لاصدار هذه المجلة ـ بالفعل ـ صدى عظيم فى جميع الاوساط أزال غشاوة على أعين كثير من الناس ، اذ ان كثيرا من الناس كانوا يرمونها بالعقم والجمود ، ويسمون شيوخها بالتحجر والعجز والكسل ، بينما كان محبوها وأولياؤها مشفقين عليها ، وجلين من مصيرها ، آملين ان تبدر منها ومن شيوخها بوادر تقر عين الودود ، وتكبت كل حسود ، فكان صدور (المجلة الزيتونية) مبشرا بطور جديد ، مبرهنا على الحيوية والنشاط والكفاءة فى ميدان التحرير والتفكير والعلم والاجتماع والسياسة والاصلاح ·

وقد استقبلتها عائلة الاصلاح بما هي جديرة به ، وكتب بقلمه الاستاذ عبد الحميد ابن باديس فى العدد العاشر من المجلد الثانى عشر يقول :

(يحق لى ـ وأنا تلميذ من تلاميذ الزيتونة ـ أن أغتبط بالمجلة الزيتونية غبطة خاصة ، ويحق لى ـ وأنا جندى من جنود الاصلاح الاسلامى العام ـ أن أسر سرورا خاصا بتعزز معاقل الاصلاح بها) ثم يقول (فجاءت المجلة الزيتونية تعلن الاصلاح وتحمل رأيته وتدعو اليه باسم جامع الزيتونة المعمور ، فكان فوزا مبينا للاصلاح والمصلحين ونصرا عظيما للاسلام والمسلمين) ويقول عن محرريها (قد ازدانت عزتها باسماء أربعة من خيرة الشبان العاملين : الاستاذ محمد الشاذلى بن القاضى ،

والاستاذ محمد الهادى بن القاضى وكنت تلقيت شيأ من البلاغة على المنعم والدهما ، والاستاذ محمد المختار بـن محمود والاستاذ الطاهر القصار ···) ثـم يقـول فى النصيحة والتوجيه : (أن اسم الزيتونة اسم اسلامى علمى تاريخى عظيم ، فيجب ان تكون المجلة الزيتونية ممثلة له مجددة لعهده ··· وانى أقترح على اخوانى القائمين بها ان يضموا الى قلم تحريرها رجالا من الزيتونيين الذين يعرفون بعض اللغات الغربية ولهم خبرة بحركات العصر ، من وراء البحر فان العلوم والاداب والفنـون تـراث الانسانية كلها ، لا تستقل فيها أمة عن أمة ، وأكمـل الامـم ازاءها مـن تحسن كيف تحافظ على حسنها ، وتستفيد من حسن غيرها) اه ·

وكتب فى تقريظها والترحيب بها الاستاذ الشيخ مبارك الميلى رحمه الله وبعـد التنويه بالجامعة الزيتونية وما لعبته من أدوار قال : (أكتب هذا وبين أيدينا أثـر من آثار ذلك الجامع المعمور وهو الجزء الثالث من المجلة الزيتونية الممتعة التى يحمـل عرشها أربعة من شيوخه المدرسين ، وفتايانه الاقوياء ، ممن جمعتنا واياهم حـلق الدروس ···) ثم يقول (ان الذى سرنى جدا وملأنى ثقـة بحسـن مستقبل مجلتنة وتحسين سمعة جامعتنا هو اشتباك امضاءات فتية ناشطين ، بامضاءات شهـب متبصرين ، وان تعاون فتوة الفتيان وحنكة الشيوخ على الاخذ بيد هذه المجلة لما يبشر بثبوت قدمها فى سلـم الكمال ··· وامتزاج هـاتين الطبقتين قضـاء على الجمـود وسلامة من التطرف) اه ·

صدرت هذه المجلة بعد بضعة أشهـر فقط مـن صدور نداء الشيخ عبد الحمـيد ابن باديس الداعى علماء الزيتونة الى التحرك واعـلان القول ، ونصر الاصلاح ، ولا ازعم ان هذا النداء هو الذى كان سببا وحيدا فى اصدار المجلة ، ولكنى أتيقن أنـه أحسن الضرب على الوتر الحساس وتر اثارتهم لانه ذكر ـ رحمه الله تحرك علمـاء الازهر ، والقرويين وعلماء طرابلس والجزائر ، ونحن نعرف شدة حساسية اخـواننا وأساتذتنا التونسيين الذين يحبون ـ دائما ـ ان يكونوا السباقين لا المسبوقين ، ومما لاشك فيه أن التجاوب سريع وعظيم بين القطرين والاحتكاك شديد فى القديم والحديث ، وكل منهما متمم للاخر · شقيق له يحسى باحساسه فى السراء والضراء ويتأثر بمـا يقى فيه · لقد متنت العلاقات بين رجال الاصلاح سريعا ، ففى عام 1356 هـ (1937 م) زار تونس أستاذنا الشيخ عبد الحميد بن باديس لاول مرة بعد انقطاع كبـير فلقي شيوخه وزملاءه وتلاميذه وابناءه الكثيرين من جزائريين وتونسيين ، واستقبل مـن

الشعب التونسى استقبالا كريما ، واحتفى به فى الاوساط العلمية احتفاء كبير وخطب فى العامة والخاصة فنال الاعجاب ، واثار كوامن الاحساس · ثم اتبـــع هذه الزيارة بزيارتين أخريين احداهما بمناسبة اقامة حسلة لذكرى المرحوم الشيخ البشير صفــر أحد رواد النهضة التونسية ، والاخرى بمناسبة عودة المرحوم الاستاذ عبد العــزيز الثعالبى مؤسس الحزب الحر الدستورى التونسى ·

وكان أستاذنا الشيخ محمد الشاذلى بن القاضى ممن يحف بالاستاذ ابن باديس ويلازمه واثناء اقامته بتونس لذكرى الشيخ البشير صفر ، استدعى للالقاء محاضرة عن الحالة فى الجزائر قالت عنها جريدة الزهره اليومية ما نصه :

(وقع اقبال عظيم جدا على سماع هذه المحاضرة الكبرى ، وكان الاستاذ ابن باديس يتوسط المسرح وعن يمينه حضرة العلامة الفاضل ، الشيخ السيد الشاذلى بن القاضى صاحب رصيفتنا (المجلة الزيتونية) الفيحاء والسيد السرى الامثل حســان بوجدرة كما كان على يسار الاستاذ المحاضر السيدان الشاذلى المكى ، وقلش الزين) ولحضت جريدة الزهرة محاضرة الشيخ ابن باديس وختمت مقالها قائلة :

وباثر ذلك وقف حضرة العالم الفاضل الاستاذ الشيخ السيد الشاذلى بن القاضى المدرس بالجامع الاعظم دام عمرانه وصاحب رصيفتنا (المجلة الزيتونية) الغــراء ، وارتجل خطابا قيما ، قدم فيه خالص الشكر للاستاذ ابن باديس بالنيابة عن الزيتونيين وأثنى على هذا المصلح الكبير والزعيم الاسلامى العظيم الذى تتمثل فيــه الناحيتان العلمية والسياسية وقال فى هذا الصدد ·

ان الجزائر اليوم اذا اعتمدت فانما تعتمد على هذا الشيخ الجليل ثم قال الاستاذ ابن القاضى ونحن ان شــاء اللــه مقتفون خطوات هذا الاستاذ فى خــدمة العــروبة والاسلام واذا قال الاستاذ ان العلم يجب ان ترافقه السياسة فاننا نقول : ان لنا علماء ضربوا فى الحركة السياسية بهم مصيب · واذكركم بان أول كلمة صدرت فى بنــاء الدستور كان مصدرها العالم الكبير الاستاذ الشيخ الصادق النيفر) اه · نقلا عــن مجلــة الشهـــاب ·

وكان مما عاتب به الشيخ ابن باديس رحمه الله علماء الزيتونة انهم أفرطوا فى عزلتهم عن محيطهم واسرفوا فى انكماشهم الذى فصلهم عن الشعب المسلم الذى من حقه عليهم انّ يتصلوا بطبقاته وجماهيره · ويبثوا الوعي الصحيح فى أفراده وجموعه وان يستمدوا منه قوتهم وطاقتهم لاداء مهمتهم الدينية القومية على أكمل وجوهها ·

ولم تذهب صيحته سدى بل استجاب لدعـوته ، وانتصح بنصحه شباب مـن شيوخ الزيتونة · وعلى رأسهم الفقيد والاستاذ المختار بـن محمود رحمهما اللـه فعقدوا رحلات علمية تهذيبية الى الآفاق ، أذكر منها رحلـة الى باجـة والشـرق التونسى ، فاتصلـوا مباشـرة بالشعب والقـوا فى جمـوعه المحاضرات والدروس والمسامرات ولولا الاحداث السياسية التى هزت تونس هزا عنيفا ، وأعلنت حالة الحصار فيها منذ عام 1938 م حتى نهاية الحرب لشهدت تونس وجها جديدا لنشاط الدعوة الاصلاحية الاسلامية فيها ، وهكذا نجد ان فقيدنا الشيخ الشاذلى قد وفي بعهده ، وكان يعنـى ما يقول عندما صرح أمام ابن باديس (نحن ان شاء الله مقتفون خطوات هذا الاستاذ فى خدمة العروبة والاسلام) اهـ · ونحن نشهد ان الفقيد رحمه اللـه قد وفى بقوله فعاش طول حياته وفيا لعهده فى خدمة العروبة والاسلام حتى لقي ربـه ·

لم تطل هذه الحقبة فى الاتصال بالشعب والتأثير فيه مباشرة ، لاعلان الحـرب العالمية الثانية فى شهر سبتمبر 1939 م · فشلت كل نشاط سياسى أو اجتماعى ، وتوقفت الصحافة الوطنية الصادقة عن الصدور بسبب حالة الحصار وفرض الرقابة وخنق الحرية ، بحيث لا يصدر الا ما يريد الغاصبون ، ومات عبد الحميد ابن باديس رحمه اللـه فى 8 ربيع الاول 1359 هـ (16 ابـريل 1940 م) ، واعتقل الاخيار مـن الزعماء السياسيين والدينيين ، وعلى رأسهم ـ فى بلادنا ـ الشيخ محمد البشير الابراهيمى ، والشيخ العربى التبسى الذى كاد يذهب ـ لولا لطف الله ـ الى الجلاد،ثم نال من بعـد درجة الاستشهاد ، ومات الشيخ مبارك الميلى عام 1945 م وما تزال الحرب وقيودها تشـل الحـركات ·

على ان هذا النشاط لم يخف تماما ، بل استمر يجرى فى طي الكمان بقدر الامكان وخصوصا لما انهزمت فرنسا وبانت عورتها للعيان ، ثم نـزل بالجزائر الاميريكان ، وبتونس الطليان والالمان ، وكان لبعض علماء الزيتونة وعلى رأسهم أستاذنا وصديقنا الشيخ محمد الشاذلى النيفر ، وأستاذنا الشيخ محمد الصالح النيفر صولات وجولات فى الميدان بجانب رجال تونس الاحرار وزعمائها الابرار ، وكنت معهم ، وعضوا فى جماعتهم · والله شهيد على اننا كنا السبب فى الافراج عن زعماء تونس وعلى رأسهم الرئيس الحبيب بورقيبة اذ كان ما يزال مع بعض رفـاقه بسجون فرنسا ومعتقلاتها بالجنوب الفرنسى فقد تدخلنا لدى قيادة الالمان وقلنا لهم : لا يمكن ان يعطف عليكـم العـرب وزعمـاؤهم فى سجـون فـرنسـا أو فـى الاقـامـة الجبـرية تحـت

حكمكم فأفرج عنهم فى نحو 24 ساعة ٠ كما كنا فيمن سعى لتأسيس الهلال الاحمر التونسى لاسعاف ضحايا القذف الجوى الفظيع ، والمنقطعين عن أوطانهم ، واللاجئين ، ومما اذكره اننا لما أرسلنا طلب الانخراط فى مؤسسة الصليب الاحمر الدولى بجنيف رجع الطلب مرفوضا مرفقا بكلمه : حيثما وجد الصليب الاحمر الفرنسى لا يسمح بوجود الهلال الاحمر) ! وانما ذكرت هذا لاقول ان المشائخ الزيتونيين ومنهم أستاذنا الفقيد لم يبقوا ـ حتى فى أحرج الاوقات ـ مكتوفى الايدى ، بل تحركوا لخدمة أمتهم ودينهم ، وتعرضوا لاعظم الاخطار.

وانتهت الحرب ، وعادت الحياة الى مجراها الطبيعى ، وصراعها العنيف ودخلت الجامعة الزيتونية فى حياة جديدة ، وتطور عظيم ، بالنسبة الى ما كانت عليه قبل عام 1939 م ٠ فاما الجامعة فقد دخل برامجها اصلاح كبير جعلها ـ بحق ـ جامعة حقيقية حرية ان تؤدى مهمتها على أحسن الوجوه قابلة ان تتطور مع الزمن ، واتسعت وامتدت فروعها حتى تجاوزت حدود تونس الى الجزائر ، واما طلبتها فقد اصبحوا قوة رهيبة لها وزنها الثقيل فى الحياة العامة وفى الاجتماع والعلم ، والسياسة والكفاح المرير ضد الاستعمار واعوانه ٠ واما المشائخ فقد اندمجوا فى محيطهم وتركوا عزلتهم ، واصبحوا فى اتصال متين مع الشعب ، تخطب ودهم الاحزاب والجمعيات وتلتمس عونهم ، وتستفيد من كفاءاتهم فى الرأي والفكر والقيادة والخطابة والكتابة ومن أشهر رجالهم فى هذا الميدان أستاذنا محمد الفاضل بن عاشور رحمه الله ، وأستاذنا محمد الشاذلى النيفر عميد كلية الشريعة وأصول الدين حفظه الله ونفع به وبعد الاستقلال أصبح الاول مفتى الجمهورية التونسية الفتية والثانى عضوا فى برلمانها الرشيد.

ثم جاءت أحداث الثورة الجزائرية عام 1374 هـ (1954 م) وانقطع ما بينى وبين أستاذى الفقيد وغيره من مشائخى بتونس ، ولم أجتمع به الا بعد الاستقلال بمدة طويلة ، ففى عام 1392 هـ (1972 م) ورد الى الجزائر بمناسبة ملتقى التعرف على الفكر الاسلامى السادس المنعقد بالعاصمة الجزائرية بمناسبة مرور عشر سنوات على الاستقلال ، وقد حضر هذا الملتقى فى صبحة صديقة ورفيقة فى العمل الاسلامى والنشاط السياسى والاجتماعى أستاذنا المبرور المختار بن محمود رحمه الله ٠ واذا كان كر الغداة ومر العشي قد تركا آثارهما على الاجسام ، ووجدت الاستاذ ابن محمود لا يكاد ينطق ولا يبين فان هذه السنين لم يكن لها اي تاثير على النفوس ، وما زالت لهما

روح الفتيان وحماسة الشبان · وقد حاضر الاستاذ ابن القاضى فـابدع واجـاد ، وتضمنت محاضرته ـ وهي منشورة بالمجلد الرابع من الملتقى السادس ـ أراء ناضجة وأفكارا سديدة فى كيفية النهوض بالاسلام وأهله ، والسير فى ركب الامم الراقية ·

بقيت ـ أيها السادة ـ كلمة أقولها عن أستاذي الفقيد رحمه الله كزميل لي فى عضوية رابطة العالم الاسلامى · فقد انتخب فى الرابطة بديلا من المرحوم الفاضل بن عاشور ، كما انتخبت عام 1393 هـ عوضا عن أستاذنا الجليل محمد البشير الابراهيمى وحضرت أولى جلسات الرابطة الدورية عام 1394 هـ ومنذ ذلك الحين كنا نلتقى فى كل موسم لمدة تزيد عن الشهر · كان الفقيد رحمه اللـه يقوم بدور هـام فى الرابطة ففى صائفة 1393 هـ انتدب على رأس وفد لجولة فى دول غربى افريقيا فزار معظم بلدانها وشعوبها ، وعرف الكثير من اخبارها ومشاكل الاسلام والمسلمين فيها ، وتقدم الـى مجلس الرابطة بحلول عملية واقتراحات مفيدة نفذ الكثـير منها ، وكان يتمتـع فى المجلس بمكانة سامية ، معروفا بشجاعته ونزاهته ، واخلاصه · يحضر جميع الدورات ويتابع الجلسات ، ويعمل فى اللجان ، ولم يتخلف الا عن الدورة الاخيرة (ذى القعدة 1397 هـ) لاشتداد وطأة المرض عليـه · واثناءها انتخب عضوا فى المجمـع الفقهى ، وها هو ذاير تحل دون ان يحضر جلسة من جلساته ·

وخير ما أختم به عن اخلاقه ونصحه وصراحته ما شهدته منه أثناء آخر لقـــاء معه فى المؤتمر الثامن لوزراء خارجية الدول الاسلامية المنعقد بمدينة طرابلس الغرب عاصمة الجماهيرية العربية الليبية فى صيف 1397 هـ ، وكنا حضرناه كعضوين فى وفد الرابطة ذلك انه كان على رأس وفد من وفود الدول الافريقية المسلمة احـد الطلاب من قدماء تلاميذ الجامعة الزيتونية · فلما عرضت قضية الثورة الايريترية كان موقف وفد هذه الدولة ورئيسه متناسقا مـع موقف معظـم دول افريقيا السوداء يناصرون دولة الحبشة ضد ثورة هذا الشعب المسلم،فما كان من أستاذنا المرحوم الا أن وجه ـ فى جلسة خاصة ـ مر العتاب واللوم لتلميذه ، وصرح له بان موقفه كسياسى يتعارض تماما مع موقفه كمسلم ، اذ كان يجب عليه ان يقف موقف التضامن الاسلامى ضد من يفتك بالمسلمين ويعتدى على أرضهم وأموالهم ، وانه لا يرضى لـه مثل هذا الموقف · ولاشك أن دافعه الى ذلك هو النصح لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم ، رحم الله أستاذنا الفقيد محمد الشاذلى بن القاضى وأسكنه مع الذين انعم الله عليهم ·

توضيــــح حــــول نشر محـاضرات الملتـــقى

ننشر هذه المحاضرات طبقا لمبدأ نشر كل محاضرات الملتقى الذى أعلنا عنه فى العدد الاول من « الاصالة » تعميما للفائــدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم المجلة ولا تصلهم كتب الملتقيات .

وقدقررنا أن ندرج فى كل عدد على الاقل مقالين .

ونرجو أن يكون السادة الاساتــذة الذين أرسلوا الينا بمقالات لم نصل بعد الى نشرها وعاتبونا على نشر القديم المتمثل فى هذه المحاضرات من ملتقيـــات سابقة،وترك الجديد من الانتاج ، قد فهموا الآن قصدنا مــن هــذا .

كما سندرج فى المستقبل فى كل عدد ، بانتظام ، نصا أو نصين من المحاضرات التى درجت الوزارة على تنظيمها خلال القطــر منذ سنوات .باسم المركز الثقافى الاســلامى .



فلسفة اللغة العربية

للمرحوم الفيلسوف د. عثمان أمين
استاذ الفلسفة بجامعة القاهرة سابقا - ج م ع -

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :

ان الموضوع الذى أود أن أحدثكم فيه هذا المساء موضوع شاق مشعب منوع دقيق ، ويحتاج منا الى وقفات تدبر وتأمل وفحص ومعاناة والنظر فيه يتناول جوانب عديدة من حياتنا الاسلامية ، وربما أسفرت عن جواب محتمل عن السؤال الذى طرحه الامير شكيب أرسلان عن أسباب تأخر المسلمين ، على نحو ما بين لنا المفكر الالمعى الاستاذ مالك بن نبى فى محاضرته اللماحة أمس٠ واعتقادى أن حركة التعريب التى أينعت فى مصر منذ نحو ربع قرن من الزمان ، والتفت اليها ذووا العزائم فى المغرب العربى بعد الاستقلال ، تدل على وعى تام لسبب أساسى من أسباب هذا التأخر الذى تردى اليه المسلمون المغلوبون أما لأنهم قصروا جهدهم على مكافحة الاجنبى الغالب ، فقلدوه فى لغته وعاداته ، وفقا لرأى ابن خلدون ، أو لأنهم جبلوا من أنفسهم مطية ذلولا لدعاة التخريب والتنصير ، كما لاحظ جمال الدين الافغانى ومدرسته فى العالم الاسلامى ٠

قلت ان «فلسفة اللغة العربية» موضوع مركب متعدد الجوانب :

فهو أولا موضوع **فلسفى** ، على المعنى الصحيح للفلسفة ، وأعنى به مفهومها القديم جدا والعصرى جدا ، ذلك المفهوم الذى يجعل من الفلسفة تأملا روحيا فى معنى هذه الحياة الانسانية ٠ وتحقيقا لوعى الانسان لذاته أو «لانيته» ، وبحثا عن دعائم الاخلاق والسلوك ٠ ان **للفيلسوف** بهذا المعنى شعارا لا يبغى به بديلا : **«ان يعمل كرجل فكر ، وأن يفكر كرجل عمل»** ٠

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ـ 19/10 اوت 1970 م٠

ثم ان الموضوع **لغوى** طبعا ، وهو من هذه الجهة جدير بالبحث والعناية ، لان علم اللغة من العلوم الانسانية على الأصالة . واللغة «ترجمان الفكر» كما قال الامام محمد عبده ، وهى وسيلتنا الاولى الى استكشاف جوانى الامة التى تتكلم بها واستكناه خصائص روحها وعبقريتها .

والموضوع **اجتماعى** أيضا ، فان شواهد الماضى وتجارب الحاضر - فى الشرق والغرب - تثبت أن اللغة هى أقوى عوامل الوحدة والتضامن بين أهلها . ولا بدع **فان اللغة - كما قال الفيلسوف (نيتشة) «تلازم الفرد فى حياته ، وتمتد الى أعماق كيانه، وتبلغ الى أخفى رغباته وخطراته. انها تجعل من الامة الناطقة بها كلا متراصا خاضعا لقوانين ، انها الرابطة الحقيقية الوحيدة الرابطة بين عالم الاجسام وعالم الاذهان»** .

ولست أعرف لغة من لغات الدنيا ، يصدق عليها قول «نيتشة» أكثر مما يصدق على لغتنا العربية . فلم يعد خافيا على أحد أن للعربية أثرا فى تكوين عقليتنا وتدبير تفكيرنا وتصريف افعالنا وهداية سلوكنا يفوق كل أثر سواه ، وبالاجمال نستطيع أن نقول : ان نظرتنا الى الكون والى الناس محكومة بلغتنا ، أردنا أم لم نرد ، وشعرنا أم لم نشعر .

وللموضوع جانب **سياسى** قطعا : فان المتتبع لسير الحركات الفكرية فى بلاد العروبة والاسلام يتبين فى وضوح أن كثيرا من تلك الحركات قد اتخذت لبلوغ أغراضها صورا ثقافية مختلفة ، وأنها تنادى دائما بالتحرر من قيود الماضى وطرح أعباء القديم .

وان نظرة فاحصة الى ما وراء المظاهر المتعددة التى تتخذها هذه الحركات ، سواء فى الادب أو الفلسفة أو الفن أو السياسة ، تقنعنا بأنها جميعا تصدر عن هوى واحد وترمى الى مقصد واحد كذلك .

أما الهوى فهو اشاعة التشكك والاضطراب فى مفاهيم الامة ومقوماتها ، حتى تضيع معالم تراثها الروحى ولا يبقى أمام أدباء الفكر فيها الا صورا مهزوزة وعقائد ممسوخة .

وأما المقصد فهو التمكين للنفوذ الاجنبى من نواحيها ، متى نام وعيها ، وتفرقت كلمتها ، فنسيت تاريخها ، وضلت عن طريقها ،

وفقد الثقة بنفسها ، وأخذت بعض طوائفها أو أفرادها تردد صيحات مستوردة دخيلة لا تمت الى روحها بأدنى الاسباب ٠

وقد تبين ذلك **المقصد** منذ أواخر القرن الماضى ومطلع القرن الحالى فى حملات «**التخريب**» التى شنها النفوذ الغربى وأعوانه فى آسيا وافريقيا ، مصوبا هجماته الى **التراث الاسلامى العـربى بوجه عام والى اللغة العربية بوجه خاص ٠**

وبدت آثار هذه الحملات فى عديد من الدعايات التبشيرية ، كما وقع فى أندنيسيا والهند ومصر وسوريا وبلاد المغرب العربى ، كما بدت فى فيض من الكتابات «الاستشراقية» ملات الاسواق فى أوروبا وأمريكا ، مثل كتاب سنوك هيرجونجة ومرجيليوث وزويمر وهويار ولوبرتران ٠

وقد قيض الله لهذه الامة الاسلامية من نهضوا بعبء الكشف عن خفايا هذه الحملات ، ووقفوا فى تنفيذ ادعاءاتها والتنبيه الى أخطارها بأسلوب علمى هادىء رزين ، بعيد عن الصخب واللجب والمهاترات «فقد اضطلع جمال الدين بالرد على دعاوى «رنان» وتصدى محمد عبده لأقاويل «هانوتو» وانبرى قاسم أمين للرد على مزاعم «داركو» وناقش مصطفى عبد الرزاق مقالات «تينمان» و «لامانس» وحويتيه» وتصدى مصطفى الخالدى وعمر فروخ للكشف عن الصلة بين التبشير والاستعمار ٠

وواضح من الوثائق التى يضمها كتاب «التبشير والاستعمار» أن هناك صلة وثيقة بين العاملين فى هذين الميدانين المتباعدين فى الظاهر ٠ فالتبشير بدأ مبكرا فى البلاد العربية والاسلامية ، وكانت بدايته بمثابة طلائع للاستعمار الغربى ، وتهلل له وتمهد الطريق أمامه وتسعى الى تثبيت أقدامه فى البلاد التى أبتليت به واتخذ الاستعمار من التبشير أداة طيعة فى يديه،فجعل همه الاول تحطيم اللغة العربية٠

وأقل تأمل فى الامر يقنعنا أن هدم اللغة العربية يحمل فى طياته تقويضا لمفاهيم الاسلام ٠ لان العربية لغة القرآن ، والقرآن لا سبيل الى ترجمته ترجمة صحيحة الى أى لغة أجنبية ٠

وعند الكثيرين من اخوانى وعندى أن ترجمة القرآن يكاد يكون جزءا من مخطط مرسوم لهدم الدين الاسلامى من أساسه ٠

لذلك رايناهم فى السنين الاخيرة يبثون العملا. هنا وهناك ، للدعوة بالعلم واللسان الى اطراح اللغة الفصحى والعناية باللغاة العامية واللهجات الاقليمية • فاذا تم لهم ما يريدون حققوا فى نفس الوقت ما يرمون اليه من تقويض وحدة العرب ، وتفتيت القومية العربية الفصحى •

* *

*

وواضح مما قدمت أن الامر جد خطير ، ويحتاج الى ملتقى فكرى كهذا الملتقى الرابع ، لا للتعرف على الفكر الاسلامى ، بل لانقاذ لساننا وضميرنا ، لان زوال اللغة فى أكثر الامم يبقيها بجميع مقوماتها غير الفاظها • ولكن **زوال اللغة العربية** ، كما قال المرحوم العقاد ، **«لا يبقى للعربى او المسلم قواما يميزه عن سائر الاقوام ، ولا يعصمه أن يلوب فى غمار الامم ، فلا تبقى له باقية من بيان ولا عرف ولا معرفة ولا ايمان» •**

* *

*

فاذا كنا جادين فى أقوالنا فلنكن جادين فى أفعالنا ، وأعنى بذلك أننا اذا كنا نريد حقا أن نجاوز مرحلة الخطب الحماسية ، وعقدنا العزم فى وعى وبصيرة على أن نعيد مجد الاسلام ، وأن نصون وحدة العروبة ، فواجبنا أن نحافظ بكل ما فى وسعنا على خصائص لغتنا وأن نستمسك فى الوقت نفسه بالسمات الفكرية الاصلية التى تجعل لهذه اللغة فلسفة متميزة •

خصائص اللغة العربية :

منذ ما يقرب من ثمانين عاما كتب الستشرق «فا نديك» ما ترجمته : **«ان اللغة العربية من أكثر لغات الارض امتيازا ، وهذا الامتياز من وجهين : الاول من حيث ثروة معجمها ، والثانى من حيث استعاب آدابها» فمنذ** نيف وثلاثين سنة كتب المستشرق «بركلمان» : **بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أى لغة اخرى من لغات الدنيا • والمسلمون جميعا مؤمنون بأن العربية وحدها اللسان الذى احل لهم أن يستعملوه فى صلواتهم،وبهذا اكتسبت العربية منذ زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات العالم الاخرى التى تنطق بها**

شعوب اسلامية» ٠ وقبل «بروكلمان» بمآت السنين قال أبو منصور الثعالبى : **ان الاقبال على تفهم العربية من الديانة «اذ هى اداة العلم ، ومفتاح التفقه فى الدين وسبب اصلاح المعاش والمعاد ، ولم يكن فى الاحاطة بخصائصها والوقوف على مجاريها ومعارفها ، والتبحر فى جلائلها ودقائقها ، الا قوة اليقين فى معرفة اعجاز القرآن ، وزيادة البصيرة فى اثبات النبوة التى هى عمدة الايمان ، لكفى بها فضلا من فيها أثره وبطيب فى الدارين ثمره»** ٠

* *

المثـاليـــة :

وأول السمات التى تتميز بها لغة القرآن هى أنها تنحو نحوا من المثالية لا نظير له فى أى لغة من اللغاة الحية المعروفة : ففلسفة اللغة العربية تفترض لأول وهلة مثالية عميقة صريحة، تحسب حساب «الفكرة» و «الخاطر» و «المثال» وتضعها فى مكان الصدارة والاعتبار ومنذ أفلاطون والمفكرون الغربيون يجاهدون من وراء لغاتهم ، الى رفع النقاب عن هذه المثالية ، فلم يستطع استكشافها منهم الا اثنان من كبار فلاسفتهم المحدثين : «ديكارت» فى القرن السابع عشر ، «كانط» فى القرن الثامن عشر ٠ وكان مؤدى هتين المثاليتين أنه يوجد الى جانب صور الحسن ، وفوق التجربة الحسية الجزئية ، «صور» أو «معان» عقلية كلية ، وأن حقيقة العالم الخارجى أو عالم الايمان هيى كونه مدركا بالذهن الانسانى ٠ غير ان هذا الاكتشاف الذى توصل اليه الفيلسوفان الغربيان بعد جهد جهيد لم يستقر بعد فى أذهان الناس هناك وما زال موضع جدال وتنفيذ : وآية ذلك ما نفتأ نسمعه فى الحين بعد الحين من القضايا المعارضة التى يدلى بها انصار «المادية» و «الوضعية» و «الواقعية» ، وكلها دلالة على مغامرات «الانسان الغربى الممزق» ، فى القرن العشرين ، ومعبرة عن ضراوة خصومتها للاتجاهات الروحية عامة والمثالية خاصة ٠

ولايضاح مثالية اللغة العربية أقول ان لغتنا فى طبيعة بنيتها وتركيبها لا تحتاج الجمل الخبرية فيها الى ما يسمى فى اللغات الغربية «فعل الكينونة» فى الفرنسية ETRE ، وفى الانجليزية TOBE وفى الايطالية SEIN فنحن نقول فى العربية على سبيل

الاخبار . «**كل انسان فان**» وهذه فى العربية جملة خبرية تامة لا تحتاج الى اثبات فعل الكينونة هذا ، فى حين أن الفرنسية مثلا تقول Tout homme est mortel ومعناه : كل انسان يكون فانيا ، أو «كل انسان يوجد فانيا ! والفكرة المفهومة من الارتباط بين المسند اليه والمسند فى النحو العربى أو «الموضوع» و «المحمول» بلغة المناطقة ، فكرة واضحة ماثلة دائما فى نفس الناطقين بالضاد، يلتفتون اليها ويخطرونها ببالهم حين يواجههم المعنى ، فاذا أرادوا أن يبرزوها أو أن يؤكدوها عمدوا الى لفظ مثل قولهم : «انه هو الحق» .

نخلص من هذا الى أن **الاسناد فى اللغة العربية يكفى فيه انشاء علاقة ذهنية بين «موضوع» و «محمول» دون حاجة الى التصريح بهذه العلاقة نطقا أو كتابة** ، فى حين أن هذا **الاسناد الذهنى لا يكفى فى اللغات «الهندو - أوروبية» الا بوجود لفظ صريح مسموع أو مقروء»** يشير الى هذه العلاقة فى كل مرة ويحمل معنى الوجود وهو «فعل الكينونة» فى اصطلاحهم ، ويسمونه فى تلك اللغاة «رابطة» بالفرنسية COUPLE من شأنها أن تربط بين «الموضوع» و «المحمول» فى الذهن اثباتا او نفيا .

وقد التفت بعض مناطقة الغربيين فى العصور الحديثة الى تكلف هذه «الرابطة» اللفظية فى أكثر اللغات الهندو - أوروبية : فقد بين «جون ستيوارت ميل» أننا لا نحتاج فى القضايا المنطقية الى شىء سوى «الموضوع» و «المحمول» ، وأن «الرابطة» انما هى مجرد علامة على ارتباطها من حيث هما موضوع ومحمول ، وفى هذا المقام نفسه قال «بوزانكيه» : «جرى المنطق الصورى على تحليل القضايا تحليلا صناعيا متكلفا الى عناصر ثلاثة يمكن فصلها بعضها عن بعض ، وهى : الموضوع ، والمحمول ، والرابطة ، وعمليات المنطق الصورى تقتضى فى أغلب الاحيان ضرورة الحصول على الاجزاء الثلاثة ، لان المقصود حينئذ هو التخلص من مصنع الزمن التى تتصل بالحكم العلمى ، والتى هى مجهدة شاقة فى القياس الصورى ، ولكن هذا النموذج ليس فى الحقيقة نهائيا : لان الحكم يمكن أن يتم بدون موضوع نحوى وبدون فعل الكينونة ، بل بدون أى فعل من أفعال النحو على الاطلاق .

على أن علماء اللغات أنفسهم - وفى مقدمتهم «فندريس» -

يلاحظون أن فعل الكينونة الذى يبدو وكأن اللغات الهندو ـ اوروبية لا تستطيع الاستغناء عنه ، لم يستخدم فيها الا متأخرا فى الزمان ٠ ولهذا كله لا نستطيع أن نقبل ما ذهب اليه أستاذنا هنرى دولاكرو من أن فعل «الكينونة» من سمات اللغات التى بلغت من الحضارة مقاما عظيما ٠

ولسنا ندرى كيف تكون تلك النافلة من القول «فتحا من فتوح الروح المنطقى» ! ولا نرى وجها لان يكون هذا النزوع الى التشخص «ثمرة جهد كبير من جهود التجريد» كما جاء فى كتاب الدكتور ابراهيم مدكور عن منطق أرسطو فى العالم العربى ٠

* *

*

ومن طريف ما أذكره فى هذا المقام أننى عرضت مرة للمقارنة بين لغتنا وبعض اللغات الغربية ، فى محاضرة ألقيتها على جمهور فرنسى وكان موضوعها : «ديكارت واللغة العربية» فخيل الى حينئذ أن المستمعين قد اقتنعوا بما ذهبت اليه من أن «**الفلسفة الديكارتية**» هى فى نظرى **أقرب** الفلسفات الغربية مطابقة **لروح اللغة العربية** ٠ غير أن شيئا واحدا كان عندهم موضع استغراب ، وهو أن تخلو اللغة العربية من فعل الكينونة ٠ ولكنى ذكرت لهم أن دلالة الكينونة التى استغربوا خلو العربية منها هى على التحقيق الشىء الذى أراه ميزة فلسفية امتازت بها لغتنا على غيرها من اللغات ٠ فالعربية ترى من نافلة القول أن نضطر الى اثبات رابطة الكينونة فى كل حقيقة كما تصدق بها ٠ بل أكثر من هذا ، أن العربية تفترض «أولانيا» وابتداء أن مجرد اخطار المعنى فى الذهن ، ومجرد ثبوت «الآنية» ـ كما يقول الفرابى وبن سينا ـ أو وجود الذات العارفة الناطقة التى تقرر المعنى كاف وحده وبنفسه لاثبات هذا المعنى ٠

وبعبارة أخرى نقول : ان اللغة العربية تفترض دائما أن شهادة الفكر أصدق من شهادة الحس ، وبتعبير فلسفى شائع لدى فلسفة العرب وصياغتها ، تقرر أن «**الماهية متقدمة على الوجود**» وغنى عن البيان أن «التقدم» هنا هو تقدم «الرتبة» و «الحيثية» ، لا تقدم الزمان أو الوضع فى المكان ٠ وهذا التقرير أو الافتراض «الاولانى» عند اللغة

العربية هو الامر الذى تجاهد بعض الفلسفات الغربيـة المعاصرة أن أن تنقضه حين تقرر أن «الوجود سابق على الماهية» ٠

وبين عند من له المام بالفلسفة الغربية الحديثة او هذه المثالية ـ التى هى أصيلة فى اللغة العربية ـ انما عبر عنها ديكارت فيما بعد بما اصطلح على تسميته باسم «الكوجيتو» الديكارتى ، وعبر عنهـا كانط فيما سماه هو باسم «الثورة الكوبرنقية» ومعناهما اجمالا أن الفكر هو المقياس الذى تقاس به الاشياء ، وان «عالم الاعيـان» (أى العالم المحسوس) مقدود على قد «عالم الاذهـان» (أى عالـم الوعى والوجدان) ٠ وليس من شك لدى الباحثين فى قضايا الفكر العربى أن هذه القضية بالذات قد انعقد لها لواء النصر ، لا عند كبار فلاسفـة العربية وحدهم ، كالفرابى وابن سينا وابن رشد ، بل عند علماء الكلام المسلمين ، كالنظام والخياط والجاحظ ٠

فاذا رجعنا الى تأمل الفكرة فى ضوء فلسفة اللغة العربية ، وجدنا غالب الرأى عند علماء اللغة قد عبر عنه صاحب كتاب «**الطراز**» **(يحى ابن حمزة اليمنى)** فى قوله : «**ان الحقيقة فى وضع الالفاظ انما هو الدلالة على المعانى الذهنية دون الموجودات الخارجية** ويمضى المؤلف العربى فيقيم البرهان على هذه الحقيقة بقوله «**اننا اذا راينا شبحا من بعيد وظنناه حجرا سميناه بهذا الاسم ٠ فاذا ازداد التحقيق بانه طائر سميناه بذلك ، فاذا حصل التحقيق بانه رجل سميناه به ٠ فلا تزال الالقاب تختلف عليه باعتبار ما يفهم منه من الصور الذهنية فيدل ذلك على ان اطلاق الالفاظ انما يكون باعتبار ما يحصل فى الذهن ٠ ولهذا فانه يختلف باختـلافه**» ٠

وينتهى صاحب «الطراز» الى تأكيد ما نحن بسبيله ، وهو المعنى الذى أشرنا اليه فى مذاهب كبار الفلاسفة من قدماء ومحدثين ، من أن تصور الاشياء فى الذهن هو المرتبة الاولى فى تحقيقها فى الذهـن وتصورها ٠ وهذه الرتبة هى الاصل ، وعليها تترتب الموجـودات الاخرى لان الشىء اذا لم يكن له تصور فى الذهن وتحقـق ، فانه لا يمكن وجوده فى الخارج بحال ٠ ثم ان بعض التصورات الذهنية قد يستحيل وجودها فى الخارج ، كما تقول فى القديم تعالى ، والقدرة

القديمة ، فان هذه وان أمكن تصورها فى الذهن ، لكن لا حقيقة لها فى الخارج بالبرهان العقلى ·

* *
*

الحضور الجواني :

وبالاضافة الى تلك المثالية الاصيلة التى بينا معالمها فى العربية تمتاز لغة القرآن بخاصية فريدة بين اللغات الحية ، وأعنى بها ما سميته باسم «الحضور الجوانى» للانية والناطقية · ومعنى هذا «أن الذات العارفة» أو «الانية المفكرة» ماثلة فى كل قضية صياغة عربية وحضورها حضور روحى داخلى ، يسرى فى الضمائر والأفعال ، الداخلة فى بنية الالفاظ ، دون حاجة الى اثباته بالوسائل الخارجية كالرموز والعلامات الظاهرة · والفعل فى العربية لا يستقل بالدلالة بدون الذات · والذات متصلة بالفعل فى نفس تركيبه الاصلى وفى حين أن اللغات الغربية الحية تضطر أحيانا الى اثبات الانية «او الذات» عن طريق ضمير المتكلم أو المخاطب والغائب مصرحا به فى كل مرة ، بحيث لاتفهم نسبة الفعل الى الفاعل بدون هذا التصريح ، ولذلك يقولون مثلا «أنا أفكر» و «انت تشك» و «هم مجادلون» · تجد فى العربية أن تكتفى بقولك «أفكر» و «تشك» و «مجادلون» دون حاجة الى اثبات ضمائر المتكلم او المخاطب أو الغائب ·

* *
*

وكذلك الاضافة أو النسبة فىالعربية تتم بانشاء علاقة ذهنية ـ وبالتالى جوانية ـ لاتحتاج الىلفظ زائد يشير اليها·فقولنا مثلا«ملتقى قسنطينة» كاف لايقاع النسبة بين «قسنطينة» و «الملتقى» خلافا للغات الغربية الحديثة · ففى الفرنسية يضطر المتكلم أن يقول le Séminaire de Constantine وفى الانجليزية me seminar of Constantine مع التصريح دائما باللفظين اللذين يشيران الى الاضافة de أو of وفى هذا المعنى يقول ابن خلدون : «**والكلمات الحاصلة للعرب فى ذلك أحسن الملكات وأوضحها ابانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعانى مثل الحركات التى تعين الفاعل من المفعول والمجرور أعنى المضاف ، ومثل الحروف التى**

تقضى بالافعال الى اللوات من غير تكلف الفاظ اخرى · وليس يوجد ذلك الا فى لغة العرب واما غيرها من اللغات فكل معنى او حال لا بد له من ألفاظ تخصه بالدلالة ، ولذلك نجد كلام المعجم فى مخاطبتهم أطول ما نقدره بكلام العرب ، وهذا هو معنى قوله (ص) : «اوتيت جوامع الكلم ··»

وتعريف البلاغة فى العربية تعريف «جوانى» وهو الوصول الى كنه ما فى القلب ، كما يقول صاحب «الطراز» بل ان مزايا البلاغة العربية «جوانية» كذلك · وفى هذا يقول عبد القاهر الجرجانى فى «دلائل الاعجاز» ، بعد أن أفاض فى بيان مزايا الكلام التى يتفاضل بها ويتقارب وبين أن هذه المزية «من حيز المعانى دون الالفاظ» وأنها «ليست لك من حيث تسمع بأذنيك ، بل تنظر بقلبك وتستعين بفكرك وتعمل برويتك وتراجع عقلك وتستنجد فى الجملة فهمك» ·

وجملة القول أن العربية بطبيعة بنيتها وتركيبها تعين الذهن الانسانى على أن يسلك الطريق الطبيعى فى تحصيل المعرفة ، وأعنى بذلك أنها يقينة على الانتقال انتقالا مسيرا مما هو «معطى» وما هو «ظاهر» الى ما هو خفى وما هو باطن ·

ومنطق التفكير فى اللسان العربى منطق «صاعد» أعنى انه يسير دائما من الادنى الى الاعلى ، ومن البرانى الى الجوانى ·

وللغة العربية سمات لا يتسع الوقت لشرحها ، فحسبى الآن أن أشير اليها اشارة سريعة ، فأقول ان من سماتها ، بالاضافة الى المثالية والحضور الجوانى ، صدارة المعنى ، والاعراب ،ورسم الظلال والالوان والحرص على الاجاز والتركيز مع دقة التعبير ، والدعوة الى الحركة وتوخى الوعى والفهم قبل المنطق والسمع والكتابة ·

* *

*

ويحلو لى فى الختام أن أورد شهادة المرحوم «لوى مسنيون» الذى وصف اللغة العربية بأنها «**تملك دياليكتكا المعجزة التى ترنو الى الابدى ولا يستغرقها المتغير الزائل** ثم قال : **اللغة العربية لغة وعى** ولغة شهادة · **وينبغى انقاذها سليمة** بأى ثمن ، للتأثير فى اللغة

الدولية المستقبلة . واللغة العربية بوجه خاص هى شعادة دولية يرجع الى ثلاثة عشر قرنا .

* *

*

واذن فالامر الذى ينبغى أن نضعه نصب أعيننا هو انقاذ اللغة من المصير الذى يتهددها اذا ضلت فى مهب الريح على نحو ما نراهم اليوم . فان المستمع لأحاديث الاذاعة وخطب المحافل ، وان القارىء لما تنشره الصحف والمطابع ، ليهوله ما انحدرت اليه اللغة العربية فى هذا العصر ، على ألسنة قوم قد يكون منهم من يستنكرون أن يلحن واحد فى لغة أجنبية . وقد رأيت بعض المستشرقين يعجب مما بلغه اليوم استخفاف أبناء العروبة برعاية لغتهم ، وقصورهم من التعبير بها واستهانتهم بقواعد نحوها وصرفها ورسم حروفها وقلة مبالاتهم بأساليب الهبوط فى مستوى المعرفة باللغة العربية عند أهلها والقوامين عليها وجدناها ترجع فى صميمها الى قلة العناية بالتعليم فى المدارس والمعاهد وتجنب الصراحة فى معالجة عيوب ذلك التعليم منذ المدارس الابتدائية ، وتشتت جهود المشتغلين بالتعريب فى البلاد العربية .

فحبذا لو نعقد ملتقى فكرى خامس ، فى أرض الجزائر ، للنظر فى مصير اللغة العربية فى الشرق العربى بل فى العالم الاسلامى كله .

الفكــر الاســلامى والتيارات المعاصرة

عبد الحي العمراوي
استاذ بجامعة القرويين - المملكة المغربية

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد القلوب ودوائها ، ونور الابصــار وضيائها ، اللهم انى أعوذ بك أن أضل أو اضل او اعتدى أو يعتدى على ، أو أقول زورا ، او اغشى فجورا • اما بعــد :

معالى الوزير

حضرات العلماء والدكاترة والاساتذة

اخوانى الطلبة ، سيداتى سادتى

يسعدنى أن أساهم فى الملتقى الرابع بهذا الحديث المتــواضع موفيا حق الشكر وأنقل الكم جميعا تحية عاطرة الانفاس من اخوانكم علماء مدينة فاس واذا كان الشكر المنعم والاعتراف بالجميل واجبين بالعقل والشرع والطبع فانى أسجل هنا باسم وقد المغرب الاقصى شكرنا واعترافنا بالجميل للذين نظموا هذا الملتقى وللاصدقاء بــل للاخوة الجزائريين الذين أكرموا وفادتنا وسهروا عــلى راحتنــا حتى شعرنا بأننا بين أهلنا وذوينا، وان كان فى حديثى هذا توفيق وصواب فهو مقتبس من علومكم الوافرة ومستلهم من أرواحكم الزكية الطاهرة وان رأيتم فيه انحرافا عن الحق والصواب فهو منى والى ، ومعذرة عن حديث هيئت بعض عناصره فوق عجلات القطار، وكتبت بعض سطوره فى ملاحقة الاسفار وقد اختصرت حديثى اختصارا استجابة لرغبــة كريمة من أخ كريم هو الاستاذ رشيد بن عيسى ، وموضوع حديثى هو الفكر الاسلامى والتيارات المعاصرة • التيارات المعاصرة التى يقف بعض الشباب بينها حائرا مترددا أربعة :

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ـ 19/10 اوت 1970 م•

ـ أولها يتصل بالعقيدة والايمان وهل التدين من الضروريات الحتمية للانسان ؟ فأما ثانى التيارات فيتعلق بالتيار الدينى المناسب فما هو هذا الدين المناسب الذى يرضى العقل ويملأ القلب ويجارى الحياة وثالث التيارات يرجع الىالانضمة الاقتصادية القائمة والمستجدة من اشتراكية معتدلة ، الى شيوعية متطرفة الى رأسمالية طاغية والتيار الرابع والاخير ، تقاليد اجتماعية وعادات غربية وأخلاق وسلوك ٠ وسنحاول باذن الله وحوله ان نتحدث عن هذه التيارات الاربعة على النسق الذى ذكرناه ،

أول التيارات وأخطرها علىالشباب والامم ما يثيره خصوم الاديان وما يزعمه الملحدون والمعطلون أن لا حاجة بالانسان الى الدين الى الدين وانه ليس لهذه الحياة غاية فاذا مات الانسان انتهى أمره ولا يمكن معاده وحشره هؤلاء الملحدون يلغون الدين ويرفضون نظامه للحياة ثم يخضعون لقانون فلماذا يفعلون ذلك ، وهل الدين الا قانون ونظام قائم عام شامل عجبا لهم انهم يرفضون نظاما عاما يرتبط به جميع البشر ، ثم ينشئون نظاما اقليميا خاصا ينفصل معه البشر ٠ فاذا كانوا يودون أن ينشروا بين الناس ألوية الصفاء والاخاء بقانونهم ، فذلك مانادى به الدين بصفة أكثر شمولا وقوة واذا كانوا يريدون أن ينفى الظلم من العالم ويسود التضامن والوئام فذلك ما نادى به الدين قبلهم بصفة أكثر صدقا وتجربة ، واذا كانوا يودون أن يحاربوا الاجرام والجوع والفقر والجهل ، فذلك هو ما أكده الدين قبلهم وألزم الناس به بصفة أكثر اقناعا وأجدى منفعة هى طريق القانون والضمير ، ان الدين السماوى يفرض على الناس جميعامحبة الانسان للانسان ، وايصال الخير اليه وابعاد الضرر واستعمار الارض بالحق والانصاف ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه**» أى حتى يحب لاخيه فى الانسانية لا فى النسب فقط ولا فى الدين فقط ، ما يحب لنفسه من الهداية والرشاد والخير والكمال ، فاذا كان ذلك هو الدين فلماذا يحاول هؤلاء ان يهدموا نظاما عاما شاملا يربط بين الانسان وبين قيمات الوجود ليبنوا على أنقاضه نظاما خاصا يربط بين الانسان وبعض ما فى الوجود ، ويربطنا كذلك فكريا مع الانسان الذى مضى فى الاجل البعيد والانسان الذى سيوجد فى الاجل القريب وهذا الارتباط

الفكرى أيها السادة له أهمية عظيمة فى السير الحضارى للحياة اذ به يستفيد الناس من بعضهم وتكون نقطة انطلاق الابناء من حيث انتهى الآباء لا من حيث ابتدأوا ٠

ان الدين كما قدمنا يدعو الناس أن يربطوا بعضهم تحت لواء واحد وان فصلت بينهم قرون بعيدة ، بل الدين هو هذا الرباط البشرى الذى كان السبب فى المحافظة على نوعنا ، وتحصين نسلنا وحماية ضعيفنا واطعام جائعنا ، والا فلماذا أطعم الجائع وأحمى الضعيف اذا لم أرج بعملى جزاء موفورا وسعيا مشكورا ، فلماذا لا أرتكب الجرئم بعيدة عن القانون وفى خفاء من الناس اذا كنت لا أخشى عقابا أليما ، فالانسلاخ عن الدين والعقيدة يصير البشرية فصيلة من الحيوان لا ترجو ثوابا ولا تخاف عقابا ، ان الدين أكثر زجرا من القانون ،فالقانون انما يراقب الظواهر بينما الدين يراقب الظواهر والسرائر ، فأيها اذن أجدر بالبقاء والخلود ٠

هؤلاء الذين ينكرون وجود اله خالق ترى من أرشدهم أن يمسكوا الثدى حينما خرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا ، ومن علمهم التفكير ومن غرس فيهم الغرائز لا يستطيعون لها دفعا ولا لغيرها جلبا من أرشد الفرخ الذى يخرج من البيضة الى أن يلتقط الحب التقاطا ويرتوى من الماء ارتواءا فان زعموا أن الطبيعة تفعل ذلك فالطبيعة صدفة والصدفة لا تكون بطريق الدوام والاستمرار هذا الى أن الطبيعة غير عاقلة ولا حية ولا عاملة فلا تهب اذن العقل والعلم والحياة لان فاقد الشىء لا يعطيه فالميت لا يعطى الحياة والجاهل لا يعطى العلم والعاجز لا يعطى القدرة ٠

اننا دخلنا هذا العالم مكرهين وسوف نخرج منه مكرهين وبين دخولنا وخروجنا ننفعل بالاحداث مكرهين فنفتقر ونحن نحب الغنى ونمرض ونحن نحب العافية ونعجز ونحن نحب القوة ونذل ونحن نحب العزة ومع هذا فان هناك قوة جبارة أقوى من آمالنا وهى التى تسيرنا رضينا أم كرهنا ، اننا لا نستطيع أن نتحكم فى عواطفنا فى حبنا للناس وكراهيتنا ، فى رضانا وغضبنا ، فمن يتحكم فينا اذن ؟ الجواب الفطرى الذى يوحى به عقل العاقل وقلب المتأمل أن فاعل ذلك كله هو الله تعالى مبدع ومنشىء الكائنات ، والانسان الذى خلق

من ماء دافق من جعله هكذا ؟ تام الاعضا. والاجهزة والحواس ولم يكن قبل ذلك فى الما. الدافق بحسب علمى ٠ ٠ تصوير للاعضاء ولا تقدير للاجهزة ولا رسم للحواس ولا تخطيط لهيكل ، أمعنو النظر أيها الاصدقاء فى هذه القاعة وفى العالم كله امعنوا النظر فى هذه الاوجه البشرية هل يشبه بعضها بعضا شبها تاما تختلط علينا معرفتها وتختلط لمحاتها وقسماتها ، ولو طلبت الى أى مهندس أن يضع تصميما لقطعة أرضية لجا. بعضها قطعا يشبه الآخر شبها تاما ، هذا والقطعة الارضية ذات أمتار كثيرة ووجهنا ذو سنتمترات معدودة ، وفى اختلاف الاصوات دليل على وجود اله خالق ، فانت تستطيع أن تتعرف على صوت مألوف لديك ، من بين آلاف الاصوات من غير أن تستعمل حاسة النظر بل انك تستطيع أن تتعرف على مائة شخص عن طريق أصواتهم وتميز بين أشخاصهم وأسمائهم ، وفى القرآن الكريم « **ومن آياته خلق السماوات والارض واختلاف السنتكم والوانكم** » ان الملحدين يقولون لمن يتصل بهم من شبابنا اذا كان هناك اله قادر رحيم فلما خلق الشر وأثار الحلق وأفقر هذا وأغنى هذا وأعمى وأبصر وسلب وأعطى،ويقولون لم لم يجعل عالمنا مملوءا بكل خير ورفاهية وسعادة،ولعل هؤلاء لايدركون المعانى الحقيقية لأوصاف الكمال،فالانسان لايكون سعيدا الا اذا كان آخر بجانبه شقيا،ونحن لانعرف لذة الشبع حتى نجوع ولا نستطيب الشرب حتى نعطش،ولا نتذوق لذة العافية حتى نمرض. ولا معني للكرم بدون متكرم عليه ولا معنى للصبر بغير الشدة ، فصفات الشر فى الحقيقة ممتعة ومكملة لصفات الخير تبرزها وتحددها وتوضحها٠ولو كان العالم خاليا من الشر لكان أيضا خاليا من الذات ، على أن هذه المشكلة من أساسها غير موضوعة لانها ليست مشكلة كونية الاهية بقدر ما هى مشكلة الانسان يريد أن يستلذ ويستمتع ويسعد ونحن نوجه له هذا السؤال ، فلماذا يريد أن يسعد والسعادة لا تكون الا على حساب شقا. الآخرين بشرا نتحكم فيه أو حيوانا نسخره ونذبحه ونلتقمه التقاما أو شجرة نكسرها أو آلة نحركها فان زعم هؤلاء أن الشجرة والآلة ليستا بذات روح قلنا لهم بأن الانسان عندكم أيضا ليس بذى روح ولو أثبتم له روحا لكفيتمونا الامر وأقررتم بالاله الحكيم الخبير ٠

ومن مسلمات العلم الجديد وحقائقه أن الشك لا يبطل فرضا من

الفروض الا اذا كان قاطعا فى البطلان والشبهات التى يثيرها الملحدون فما كانت فهى مجرد شكوك لا تستطيع أن تبطل عقيدة راسخة ودينا يقينيا وهم لحد الآن ما زالوا يشكون ، أى مازالوا لم يخرجوا عن دائرة الشك الذى لا يبطل اليقين، وفى الدين القويم من القوة الروحية ما يجعلها ترد الشك باليقين وتحافظ على استمراره وشموله وقد شاهدنا دائما فى الماضى والحاضر أن القوة الروحية المستوحاة من الدين تقهر قوة السلاح وقوة المال وقوة العلم ، وقد تقدمت أمثلة فى التاريخ وخير مثال لها فى العصر الحاضر هى الثورة الجزائرية المباركة التى استوحت قوتها من الدين والعقيدة أفلم تقهر قوة السلاح وقوة المال وقوة العلم ، والشريط السنمائى الذى شاهدناه ليلة الخميس مثال صادق أيضا ذلك الشريط الذى أثبت أن قوة الدين قهرت قوة السلاح وقوة المال وقوة العلم .

هذه بعض البراهين على وجود اله خالق قادر ذكرناها غير مستفيضين ولا مستوعبين حججا أخرى ربما كانت أدل وأقوى ، والتى استعملها القرآن الكريم ليجادل بها المعطلين والملحدين : ففى النطفة فى الارحام وتكوين الانسان من العلقة التى هى الحيوان المنوى بالتعبير الجديد ، وقد قال الله تعالى: « **ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشاناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** » وفى الاشارة الى أن الشمس والقمر يجريان بحسبان دقيق لم يكن العرب يومئذ قد عرفوه وفى سورة الرحمن « **الشمس والقمر بحسبان** » وقد تحدى القرآن الكريم الناس جميعا بأنهم لن يستطيعوا أن يخلقوا ذبابا واحدا ولو اجتمعوا له ، وقد مضى على هذا التحدى أربعة عشر قرنا ، وما زال هذا التحدى قائما موضوعا ، لقد وصل العلم الى أجواء الفضاء وربط الارض بالقمر ونفذ فى أعماق الارض والبحار وجال مع الافلاك فى مدارها ولكنه لم يستطع أن يخلق ذبابا حقيرة أو حشرة صغيرة .

فما زال هذا التحدى قائما ، وما زلنا منتظرين ، أن العلم الحديث فى شموله واتساعه ما زال عاجزا أيضا على أن يبطل آية واحدة من آيات الكون المذكورة فى القرآن بصفة قاطعة لا تقبل الشك ، بل ان

العلم يؤكد ويشهد بحقائق علمية جاءت فى القرآن ، ولعل بعض الشباب فى الامة العربية تستميله أفكار من الغرب ، عرفت مساوىء الكنيسة واختبرتها فالحدت فيها ويحق لها أن تلحد لان الكنيسة كما كما سنبين فى التيار الثانى ، لا ترضى باستعمال العقل والفكر فى الايمان وهى من أساسها نخرة واهية ، فلعل هؤلاء يظنون أن مبادىء الاسلام تقوم على هذه الاسس النخرة قاسوا فى غير موطن القياس وعموا فى غير موطن العموم .

التيار الثانى مع المسيحيين ، وحيث أنهينا مناقشة الملحدين واطمأن العقلاء الى أن هناك اله خالق ، وحيث تبينا أن الدين ضرورى للناس فى حياتهم ترى ماهو هذا الدين الذى سنختاره ؟ أهو اليهودية ؟ ونحن نعلم أن اليهودية كفتنا أمرها وكشفت عن وجهها بعد أن انزوت فى عقر بيتها وانطوت على نفسها ، ثم انها الآن فى معظمها صهيونية آثمة ماكرة معتدية لا تدين بشريعة الله ولا تحسب لنداء السماء،وهل سنختار المسيحية التى تطمع فى استمالتنا اليها .

هذه المسيحية التى تركت شبابها فى أوروبا للالحاد والانحراف ويئست منهم ، تحاول أن تنهى بين المسلمين كنيستها وتفتح مكاتبها وتصدر صحفها ونشراتها وتجند رهبانها لخدع شبابنا وتستميل أطفالنا وتنصر ضعفاءنا ، ونقاشنا للمسيحيين يرتكز أولا على ابراز طبيعة المسيحية والاسلام ، فالمسيحية نظام خاص للأخلاق والتسامح لم تعن بجميع النظم التى يحتاج اليها الانسان فى الحياة واذن فهى دين ناقص ، اضطر الانسان الناقص الى تكميلها وتتميمها دين ناقص كمله انسان ناقص ، أما الاسلام فقد كا فى أول وهلة دينا تاما نظم كل شؤون الناس وتدخل بالحكمة فى كل ميدان، ومن المعروف أن الاديان التى سبقت الاسلام كانت كلها مقتصرة على مبادىء خاصة لطائفة خاصة ، وبشارة القرآن الكريم الى ما قلناه قوله تعالى : « **وأرسلناه الى مائة الف أو يزيدون** » وهذا سر تعدد الرسل فلكل بلد نبيه ولكل ظرف معين رسوله الذى يبلغ شريعة الله ، لان الظروف تتغير والمفاهيم تتجدد ، أما الاسلام فمبادىء عامة للبشر عامة وهذا سر كونه خاتمة للاديان السماوية زيادة على أن الاسلام قد أعطى الحرية لعلماء فى أن يجتهدوا فى وضع أحكام وفق الخطوط الرئيسية

فى النازلة التى لا يوجد فيها نص ، بل ان بعض الصحابة اعطوا لانفسهم الحق أن يجتهدوا مع وجود النص ·

اننا نؤمن بما أنزل على عيسى وموسى ومن بعد موسى وعيسى ولكن المسيحيين يؤمنون بالبعض دون البعض فلماذا ؟ والتاريخ الامين الذى نقل الينا رسالة عيسى هو التاريخ الاكثر أمانة الذى نقل الينا رسالة سيدنا محمد صلوات لله عليه وسلامه فلماذا يصدقون التاريخ تارة ويكذبونه تارة أخرى ، وقد رأيت أن أبرز بعض الجوانب الضعيفة فى تدينهم فضحا لهم وتشهيرا لمساوئهم وان ايمانهم بسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام يثير الضحك والفكاهة ، فولادة عيسى الخارقة واختفاؤهم الخارق أثار فى أنفسهم خيالا ما زال يتسع ويتسع حتى سلخوه عن مصاف البشر ، وصارت هذه العقيدة دينا رسميا للكنيسة فى القرن الرابع للميلاد ، وكذلك كانت ولادة عيسى من غير أب مثار خلاف واسع بين اليهود الذين تطرفوا الى الجبهة السفلى فزعموا أنه لقيط وأن أمه بغى وبين المسيحيين اللذين تطرفوا الى الجانب الآخر فزعموا أنه اله فى صورة بشر ، لكن المسلمين توسطوا فنفوا عن أمه الزنا وبذلك خالفوا اليهود كما نفوا عنه الألوهية وبذلك خالفوا النصارى ، وخير الامور أوسطها وأتم الآراء أعدلها ، وبهذا فسر بعضهم قوله تعالى : « **وكذلك جعلناكم أمة وسطا** » أى وسطا فى غلو النصارى وتطفيل اليهود ، وسطا فى العمل بين طقوس اليهود المرهقة وطقوس النصارى المجحفة ، وقد اعترف المسيحيون أن عيسى قد اختلط به اللاهوت بالناسوت اختلاط الماء باللبن ، أو الغذاء بالبدن والنار بالحديد فهو عندهم اله أو جزء اله أو ابن الاله،وهم قبل أن يبرئوا اليهود من دمه فى السنوات الاخيرة فقط كانوا يعتقدون ان اليهود أهانوه وضربوه وقتلوه وصلبوه ، ترى كيف يكون هذا الاله المضروب المهان المعذب المقتول وهلا دافع عن نفسه ، ومن كان يدبر أمر السموات والارض حين دفن ثلاثة أيام بزعمهم ومن ناب عنه ، وهل الله فارقه حينما دفن أو صاحبه فى قبره ، فان كان قد فارقه فكيف ذلك بعد أن مازجه وان صاحبه فكيف دفن الله تحت التراب والصليب الذى صلب فوقه عيسى بزعمهم لماذا يقدسونه وكان الاجدر بهم أن يهينوه ويكسروه ، وما أجدر النصارى تبعا لمنطقهم أن يتخذوا موسى الها بدلا من عيسى لان عيسى اذا كان قد أحيى الموتى

فموسى صير الجماد حيا ، فقلب العصا حية اقرب للألوهية من اعادة الحياة للميت ، ثم ان عيسى كما نقلوه هم أنفسهم كان دائم العبادة والطاعة للاله فهل كان يعبد نفسه وأصل خطئهم هذا انهم استنبطوا بنوة عيسى للاله من ألفاظ الاناجيل التى تعبر فى غالب الاحيان عـن سيدنا عيسى بالابن ففى الآية الثامنة والعشرين من الباب الرابع عشر من انجيل يوحنا مرقس : «**ان أبى أعظم منى**» وفى انجيل لوقا الآيـة السادسة والاربعون من الباب الثالث والعشرين :

«**ونادى يسوع بصوت عظيم فقال يا ابتـاه فى يديك استـودع روحى**» وهذا الاستنباط غير صحيح لان استعمـال ابن انســان فى أناجيل عادى بالنسبة الى عيسى ولى جميع أتباعه من الحواريين وغيرهم ففى الآية السابعة عشرة من الباب العشرين من انجيل يوحنا قـول عيسى مخاطبا مريم المجدلية : (لا تلمسينى لانى لم أصعد الى أبى ولكن اذهبى الى أبى ولكن اذهبى الى اخوتى وقولى لهم انى أصعد الى أبى وأبيكمو الهى والهكم ، وأحيل المستمعين على قراءة كتاب اظهار الحق لمؤلفه المسمى (رحمه الله الهندى) ففيه ما يكفى ويشفى ·

ولذلك تعلموا أن المسيحيين خلطوا بين الخالـق والمخلـوق فاستحالا فى التصوير واستعصيا على الفكر وضاعا معا على الفهـم ، أما الاسلام فانه يذكر بصراحة أن محمدا بشر عادى ، وانه عبد الله ورسوله ولا سيطرة له على الناس ففى القرآن : «**لست عليهم بمسيطر**» وانه لا يعلم الغيب ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا بل كثير ما عوتب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عتابا شديدا فى القـرآن نفســه ،

اعتراف الاسلام ببقية الاديان :

وفى تسامح الاسلام أنه هو الدين الوحيد الذى يعترف ببقيـة الاديان ويضع نظاما للتعايش بينها ويرفض رفضا باتا أن يكره أحـد على الخروج من دينه ، وفى القرآن الكريم « **لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى**» وفيه أيضا : «**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**» أما فى الانجيل فقد جاء : «**أجبروهم على اعتناق دينكم**» وقد نشأ عن هذا أن المسلمين تسامحوا مع أتباع الاديان الاخرى · هل تعلمون أيها الاصدقاء أنهم جعلوا من اليهود والمسيحيين وزراء وعمالا ونصبهم المسلمون رؤساء على المسلمين ومسؤولين مقربين فى الشرق وفى

الغرب ، بل كانوا أحيانا قليلة يلزمون المسلمين بتقبيل أيديهم على عادة الحكام يومئذ ، فهل يوصف المسلمين بعد هذا بالتعصب وهل استطاع المسيحيون أو اليهود أن يجعلوا من المسلم مسؤولا كبيرا فى مجتمع يهودى أو مسيحى ذلك هو الامر الذى لم يثبت فى التاريخ أو على الاقل لم أطلع عليه ، هذا مع ما عرف من المسيحيين من روح اضطهادية لمن هو على غير دينهم ، فكم سالت من دماء بين الكاثوليك والبروتستانت ، صحيح أن المسلمين حاربوهم ورفعوا السيف فوق أعناقهم ، لكن المسلمين حاربوا المسيحيين لا المسيحية ، وقاوموا اليهود لا اليهودية فلم تغلق كنائسهم وبيعهم ونهينا عن قتل رهبانهم وصبيانهم ونسائهم ولم يمنعوا عن أداء طقوسهم الدينية بيننا وهم قد أغلقوا مساجدنا وقتلوا علماءنا واهانوا نساءنا ونكلوا بأطفالنا وشيوخنا واذا كان الاسلام يعترف بدينهم فهو انما يعترف بأصول دينهم لا بما غيروا وحرفوا وهم دائما يغيرون ويحرفون لانهم أعطوا لرهبانهم سلطة روحية وعملية بها اللهو عيسى وقدسوا الصليب وتجاوزوا عن سيئات الناس وغفروا ذنوبهم وبها أدانوا اليهود من دم عيسى ثم برؤوه منهم فى السنوات الاخيرة ،وقد اضطررت أن أتحدث عنهم وعن تاريخهم وديانتهم لانهم لما يئسوا من شبابهم اتجهوا الى شبابنا وأطفالنا فانشأوا بين قومي كنائسهم ومكاتبهم وأخذوا يبثون دعايتهم ويغرون ضعفاءنا بالمال ومع ذلك فهل استطاعوا أن يكسبوا فردا أو أفرادا بقدر ما ينفقون من امكانيات ؟ ذلك مالا أضن لقد فشلوا بيننا كما فشلوا بين قومهم وهل اتجهوا الى العلماء والمثقفين يعرفون تاريخهم ومكرهم وانا على استعداد لننشد معهم الحقيقة باحثين عنها ، مستعملين المنطق الخالص لابرازها فهل هم فاعلون ؟ فان لم يفعلوا دعوناهم الى ما دعاهم اليه معالى الوزير فى خطبة الافتتاح ، وانى لارفض بعد هذا كله أن يسمح الاسلام فى هذا العصر بالذات بالتزوج من بناتهم ومصاهرتهم للاسباب التى قدمها اخوان لى وأخوات من قبل ، ولسبب آخر تاريخى ، فهل تعلمون ـ أيها الاصدقاء أن بعض الاسباب التى ضاعت لنا بسببها وطننا فى الاندلس هو التزوج بالاجنبيات هو اتجاه الحكام والاغنياء الى التزوج بالاسبانيات ، وهل تعلمون أن آخر عرش سقط فى الاندلس كان من بعض أسبابه أن صاحب العرش متزوج بمسيحية ، واستعرضوا معى الدول المتوالية

على حكم الشرق خلال عصوره القديمة ، فحينما تكون قائمة على أساس عربى الاب والام يثبت بنيانها ويستقر سلطانها فاذا قامت على أساس عربى الاب أجنبى الام ، أسرع الخراب اليها وانحلت عروتها وذهبت أصالتها **وقد حافظ أجدادنا على اصالة خيولهم فكيف لا نحافظ على اصالة رجالنا وابنائنا ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :**

«اياكم وخضراء الدمن ، قيل ما هى خضراء الدمن يارسول الله؟ فاجاب : المرأة الجميلة فى منبت السوء» وأى سوء أسوأ من امرأة نشأت فى غير بيت الاسلام وتغذت بغير لبن العروبة • قلنا أن نمنع شبابنا من التزوج بالاجنبيات دينا ووطنية ، ولا حاجة الى القول بأنهم ليسوا من أهل الكتاب فقد أثبت القرآن بأنهم من أهل الكتاب على الرغم من اخباره فى نفس الوقت بأنهم بدلوا وحرفوا وقالوا ان الله ثالث ثلاثة وعزير بن الله • وقد عاملهم الرسول معاملة أهل الكتاب ، مع اخبار الله له بتبديلهم وتحريفهم ، ولو أن التحريف يخرج المحروف من أهل الكتاب لاخرج من دائرة الاسلام أيضا طائفة غير قليلة من المسلمين •

التيار الثالث : الانظمة الاقتصادية :

نظرة تاريخية موجزة وننتقل الى الانظمة البشرية بعد أن تحدثنا عن الانظمة السماوية ، والانظمة البشرية هى الانظمة الاقتصادية القائمة عند بعض الدول وهى أنظمة لم يعرفها العالم الا فى فجر القرن السادس عشر وقد كان الجمهور الاوروبى قبلها يعيش فى عهد الاقطاع والطبقات والامراء والنبلاء والقياصرة ، فيملكون الارض وما عليها من عمال وفلاحين ويتصرفون فيهم تصرف المالك لسلعته ، فقد كان العمال سلعة تباع وبذلك كان الجمهور فى غنى عن التفكير فى شؤونهم واقتصادهم فلما تحرروا تشابكت مصالحهم ونشأ بينهم نظام اقتصادى أسموه مذهب التجاريين أيده فريق يرى أن تدخل الدولة لحماية الاقتصاد وعارضه فريق يرى حرية المضاربة التجارية ، وكان فلاسفة فرنسا فى طليعة المعارضين فرأوا أن يجرى النظاما الاقتصادى على طبيعته فسموا بالطبيعيين، ثم تلاشى هذا المذهب ودخل فى أعماق التاريخ حينما وضع آدم سميث الانجليزى مبادئه الاقتصادية بعد عزلة دامت عشر سنين ، ويقوم مذهبه على أن العمل هو قوام الثروة

الاهلية ، والعمل عنده هو الذى يبذل فى انتاج سلع انتاجية أو استهلاكية ، ذات منافع اقتصادية ، أى ذات قيمة استبدالية وغير هذا لا يسمى عنده عمل ، وأخذ الناس بهذا المبدأ فاستغنى بعضهم وانزلق عامة الناس نحو البؤس والفقر ، فبرز نظامان أولهما يرى العلاج فى القضاء على الرأسمالية وهم الاشتراكيون ، وثانيهما يرى أن البؤس والفقر يرجعان الى نظام الطبيعة وقانون الحياة وما كان كذلك استعصى على الفلسفة علاجه ، وهؤلاء هم المتشائمون ومن كبرائهم مايست الراهب الانجليزى الذى يرى أن تكاثر السكان يجرى وفق متوالية هندسية أى واحد اثنان أربعة ثمانية ستة عشرة، بينما الانتاج الزراعى يجرى وفق متوالية حسابية واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة .. الخ وهكذا ثم يقول فالحكمة تقتضى على أن تكون الولادة على متوالية حسابية لماذا ؟ ليقع التوازى بين انتاج الارض وانتاج البطن ، وزعم أن تكاثر السكان له مانعان هما : مانع قهرى هو الامراض والزلازل والاوبئة ومانع اختيارى وهو تحديد النسل ، وزعم أن العالم كالمائدة المملوءة بالآكلين ، فليس للمولود الجديد موضع فيها ، والحقيقة أن الاشتراكية تعنى بالجماعة وعلى الفرد أن يخضع للجماعة ولو ضحى بمصالحه وهى لا تحرم الا الملكية الفردية لعوامل الانتاج بينما تحرم الشيوعية الملكية الفردية عموما وان وقع فى دستور بعض البلدان الشيوعية اباحة الملكيات كمنازل السكنى ، وقد زعم بعظهم أن الاشتراكية تهب لكل بقدر انتاجه اما الشيوعية تهب لكل قدر حاجته على أن الاشتراكية تختلف فى التفسير والتطبيق باختلاف الاحزاب والدول ، وقد ظهر كارل ماركس أخيرا وكان أبوه يهوديا ثم تنصر ونشر بيانا دعا فيه العمال الى الاتحاد والاعتماد على القوة والعنف وتكوين دعائم الانتاج الفردى ثم جاء لينين فآمن بالمبادىء الماركسية وسماها شيوعية وألف كتابه **الدولة والثروة** لشرح برامجه وأهدافه ويتلخص مما ذكرنا أن هذه المبادىء تقوم على نظريات فلسفيه حول العمل والعمال والارض وزراعتها والآلة وانتاجها وغير ذلك من أسباب الحياة ورفاهيتها ،ونحن نرى أن قيام بعض هذه الحركات فى البلدان القاصية قد يكون له سبب معقول اذا كان رد فعل قوى لنظام الطبقات والاقطاع والتسخير الذى كان سائدا فى أوروبا .

أما المجتمع الاسلامى الحق فليس نظامه طبقيا ولا اقطاعيا على أن

الاسلام وضع حلولا لبعض هذه المشاكل ، قد تلتقى معها بعض النظريات الحديثة وقد تختلف والامر من أساسه لا يعدوا أن يكون نظاما اقتصاديا لا عقائديا ، اذا استثنينا النظام الشيوعى الذى يعتبر الدين أفيونا للشعب وسندا للطغاة وتضليلا للجمهور .

موقف الاسلام مما يسمى رأسمالية وشيوعية :

ان القرآن الكريم وقف وسطا بين هذين المذهبين فقد رد على الرأسمالية بقوله تعالى : «**واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ان أنتم الا فى ضلال مبين**» فلا يجوز فى نظر الاسلام أن يبقى الجائع جائعا بين الاغنياء فان كان قويا وفرنا له سبيل العمل وان كان عاجزا وفرنا له ما يحتاج اليه فى الحياة ، والزكاة المفروضة بالقرآن ، أو المفروضة بالسلطان ، أو بطريق الضمير والاحسان قد تساهم فى حل مشاكل هذا العاجز الضعيف ، كما رد القرآن الكريم على الشيوعية أنه : اذا كان الناس متفاوتين فى المواهب العقلية والذكاء والبلادة والقوة والصحة والعمل والكسل فهم أيضا متفاوتون فى الرزق والمال وفى القرآن الكريم : «**والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء**» ، فالاسلام وسط شيوعية مغالية ورأسمالية طاغية ، فالمال عنده هو مال الله لا يملكه أحد الا بطريق الانتفاع وانما المسلمون خلفاء الله فى أرضه على ما أعطاهم من خيرات وأولهم من فضل ، فلننفع الناس بمال الله وفى القرآن : «**وآتوهم من مال الله الذى آتاكم**» وفى القرآن أيضا «**أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه**» والميزان الذى يعبر به القرآن الحكيم فى كثير من الآيات هل هو الميزان المعروف الذى تزن به البضائع كلا ، بل هو الميزان الذى يضبط به المصلحون والحاكمون أحوال الناس وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية على أحسن ما يرون من حكمة ، وكون المسلمين شركاء فى الاشياء ذات المصالح العامة مفهوم من روح التشريع أيضا ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : «**ان المسلمين شركاء فى النار والماء والكلأ**» وانما خص هذه الثلاثة بالذكر لانها يومئذ الاساس فى الجزيرة العربية ، ولنا أن نقيس عليها اليوم المعادن والمعامل والشركات وغيرها ، فالناس شركاء أيضا فى المعادن والمعامل ، فالمسلمون شركاء فى المعادن والمعامل

والشركات وغيرها ، ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : «**ايما اهل عرصة اصبح فيهم امرء جائعا فقد برئت منهم ذمة الله**» وقد جعل القرآن الكريم الشخص الذى لا يحض على طعام المسكين من المكذبين بالدين ، فما ضنك بالذى لا يطعمه ، فليس البر أن نصلى ونصوم ونحج فحسب ولكن البر كل البر من أطعم الجائعين وعلم الجاهلين وهذب المنحرفين وأعان العاجزين ٠

وفى اعتقادى أن الجماهير الاسلامية الجائعة المتخلفة فى حاجة الى توفير العمل لها واسعادها بالمال والغذاء والدواء أكثر من حاجتها الى الموعظة والدعاء ٠

أما تحديد الملكية فللحكام أن يحددوها اذا رأوا حاجة ماسة اليها كما فعل عمر فيما أظن ولهم ألا يحددوها اذا لم تدع الحاجة اليها كما فعل غير عمر فهل يقتنع الشباب بهذا ، ويكتفى به عن الدعوة الى الشيوعية أو الرأسمالية التى أضاعتا فلسطين ، فبين شيوعية ملحدة ورأسمالية طاغية عاتية ضاعت فلسطين الحبيبة ٠ وهل حلت الرأسمالية فى بلدها مشاكل الفقر والبطالة ، وهل حلت الشيوعية فى بلدها مشاكل التغذية والرفاهية ، أما التجربة الاساسية للاشتراكية فقد نجحت وأعطت أكلها وانى لاتبين هذه الاشتراكية المسلمة المطمئنة الناجحة فى الاراضى الجزائرية التى مررت عليها عبر القطار ، رأيت الاراضى المشجرة والحقول المستثمرة والمعامل المستكثرة والايادى الجزائرية التى ألقت البندقية لتحمل المعول ، وودعت القنبلة لتدير الآلة ، انهما معركتان اثنتان ، انتصرت الجزائر الشقيقة فى أولاهما انتصارا باهرا وقد بدأت ملامح النصر تبدو عن كثب فى ثانيهما ، وليس الجهاد الثانى بأقل ولا أهم من الجهاد الاول لكن اليد التى عرفت كيف تحمل البندقية ستعرف أيضا كيف تدير الآلة ، وانى لأتبين أيضا هذه الاشتراكية المسلمة فى الجدية المتوفرة والحركة الدائبة والفكرة المتوثبة الثائرة ، وفى المساجد العامرة وفى المرأة المحتشمة كل ذلك فى هذا البلد الامين ، الذى اشرقت سمسه وانجلت ظلمته وأسفر صبحه ، وان شاء الله أن ينطفىء نور فى مكان من الامكنة ويتقلص ضل التعليم الاسلامى فى جهة من الجهات فقد شاء الله أيضا وله الحمد أن يشتعل نور الاسلام فى هذه الارض الطيبة وينبسط دين الله فى هذه المرابع ٠

التيار الرابع الأخير :

أما التيار الرابع والاخير فهو آثار ونتائج لبعض المذاهب التى تحدثنا عنها آنفا فالشيوعية والراسمالية جردتا الانسان من مفاهيم النبل والاحسان والحب والتضحية والشهامة والخير والحق والضمير والايمان فصار الانسان انسانا ماديا آليا مجردا من كل عاطفة ، واصبحت المرأة فى بعض البلاد الاوروبية تكتسى مظاهر الرجولة فى لباسها وتصفيف شعرها واخشوشنت أعضاؤها بحكم المساوات فى العمل والارهاق ، فهى ذات كتف عريض بحكم الشغل ووجه متلبد بحكم التعب وبشرة خشنة بحكم الارهاق ويد قوية وعضلات مخيفة ، قد برز زندها وتصلب ساقها وقصت شعرها واختفت أنوثتها ، وصارت بحق هى الجنس الخشن ، فهل سيحتل الرجل مكان المرأة عندهم،ذلك ما أظن ولا سيما عند ما تخلق الشباب الاوروبى وبعض الشباب العربى المسلم بأخلاق المرأة فأرسلوا شعر رؤوسهم ورشوا مساحيق الزينة على وجوههم ودلكوا بالادهان المرطبة بشرتهم وعلقوا السلاسل الذهبية فى أعناقهم وجعلو أساور الذهب والفضة حول معاصمهم ورققوا حواجبهم وأرسلوا أضافرهم وضيقوا سراويلهم ونقلوا الينا مفاسدهم وأمراضهم وأوبئتهم، ولبسو[1] الملابس الشفافة المزخرفة البراقة ، واهتم الشباب بمشطه وعطره وزينته قبل اهتمامه برجولته ورسالته ·

وتلك المناظر أيها الاخوة الجزائريون قد طهر الله منها بلادكم واعينكم وأبعد عنكم شرها وأهوالها ، وقد يكون الرجل عندهم مغرورا فيما صنع لانه تلمس المرأة فى البيت فافتقدها والفاها رجلة مع الرجال ، وعاملة مع العمال ، فقام بدورها واحتل مكانتها ، وافتقدت المرأة أيضا عندهم الرجل فلم تجده بجانبها فتطلبته فى الاماكن القاصية من العالم الذى لا يزال يحتفظ بالرجال والنساء فهل الشباب العربى فى هذه الدروب الضيقة داخل ؟ أم عنها راغب ولها محارب ان الرسل لما بعثوا اعتمدوا على الشباب ، فى تبليغ الدعوة وتحمل الرسالة وان المصلحين أيضا يعتمدون على الشباب ليخلفوهم وينصروا دعوتهم ، ترى ماذا سيقع لو تخلف شباب العالم عن مسؤولياته ، انه قطعا خراب للعالم وفناء ورجوع بالانسان الى الوراء فهل الشباب العربى سيكونون رسلا لمبادىء الحق والخير والجمال

فيقتنعون بها ويبشرون بها الناس ، واذا كان آباؤكم أيها الشباب قد قد تحملوا رسالتهم الفكرية . لما كانت الرسالة دما مراقا وسفـرا ممتعا ، وأمانا شاملا ، واسمحوا لى فى الاخير ايها الاخوان أن أصارحكم ولا أنافقكم ، فانى قد تلمست فى الجزائر جدية متدفقة وروحانيـــة ثابتة واشراقة قريبة ورفاهية منتظرة ، وديانة متينة وعروبة أصلية وثقافة أصيلة ومساجد عامرة وامرأة محتشمة فاذا بقى الامر هكـذا ونرجو أن يبقى فسوف تتبوأ الجزائر زعامة الامة العربية والاسلامية بعد بضع سنين .